



شيخ الإسلام والمسلمين، وعمدة الفقهاء والمحدّثين

عبد الغني الدقر



دار القلم

أعلام المسلمين

١٠



شيخ الإسلام والمسلمين، وعمدة الفقهاء والمحدّثين

وصفوة الأولياء والصّالحين

تأليف

عبد الغني الدقر

دار القلم

دمشق

الطبعة الرابعة

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

الإمام النووي رحمه الله

هذا الرَّجُل

● الشيخ الإمام القدوة، الحافظ الزاهد، العابد الفقيه، المجتهد الرباني، شيخ الإسلام، حسنة الأنام.

(الإمام الذهبي)

● الإمام الحافظ الأوحد، القدوة، شيخ الإسلام، عَلَم الأولياء صاحب التصانيف النافعة.

(الإمام الذهبي)

● الشيخ الإمام، العلامة الحافظ، الفقيه النبيل، محرر المذهب ومهذبه، وضابطه ومرتبه، أحد العباد والعلماء الزهاد. كان على جانب كبير من العلم والعمل والزهد والتقشف، والاقتصاد في العيش والصبر على خشونته، والتورع الذي لم يبلغنا عن أحد في زمانه ولا قبله بدهر طويل.

(الإمام ابن كثير)

● شيخ الإسلام، علم الأئمة الأعلام، أوحد العلماء العاملين والأولياء الصالحين، عين المحققين، وملاذ الفقهاء والمحدثين، وشيخ الحفاظ وإمام أرباب الضبط المتقنين.

(العلامة محمد بن علاّن الصدِّيقي)

● العالم العامل، المحقق الفاضل، الولي الكبير، السيد الشهير، ذو المحاسن العديدة والسيرة الحميدة، والتصانيف المفيدة، الذي فاق جميع الأقران، وسارت بمحاسنه الركبان، واشتهرت فضائله في سائر البلدان.

(الإمام اليافعي اليمني)

المقـــدّمَة

الحمد لله رب العالمين. وأفضل الصلاة والسلام على أشرف النبيين محمد النبي العربي الأمين، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

دخل أعرابي رث الهيئة بالي العباءة على معاوية، فاقتحمته عينه، فعرف الأعرابي ذلك في وجه معاوية، فقال: يا أمير المؤمنين إن العباءة لا تكلمك، ولكن يكلمك من فيها، فأدناه فإذا به مِذْرَة فصاحة في القول وبلاغة، فجعله من خاصته.

وأروع من ذلك أن الملك الجبار الظاهر بيبرس ـ الذي أذهل الصليبيين والتتار ببأسه وهول حروبه ـ أحضر لديه علماء عصره ليوقعوا فتوى[1] زينها له بعض المنتفعين ممن يبيعون دينهم بعرض من الدنيا، فوقعها بعضهم خوفاً وامتنع بعضهم، فنزل به غضب الظاهر فهلك. ثم قال الملك الظاهر: هل بقي من أحد؟ قالوا: نعم الشيخ محيي الدين النووي، فطلبه فحضر، فإذا شيخ هزيل الجسم، مرقع الثياب، يضع عمة صغيرة، فاستصغره واستخف به

(١) ستأتي قصة هذه الفتوى في «أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر».

وقال: يا شيخ اكتب خطك على هذه الفتوى. فنظر فيها الشيخ رحمه الله وقال: لا أكتب ولا أوقع، فقال الملك بغضب: ولم؟ قال الشيخ: لأن فيها الظلم الفادح، فاشتد غضب الملك وقال: اخلعوه من جميع وظائفه، فقالوا: ليس له من شيء. ثم هَمّ أن يفتك به ولكن الله منعه وكف يده، وقيل للملك: عجب أمرك، كيف لم تقتله وقد وقف منك هذا الموقف؟ فقال: قد ـ والله ـ هبته.

هكذا كان حال النووي عليه رحمة الله، إذا رآه الرائي ظنه شيخاً من فقراء سكان القرى فلا يأبه له، ولا يخيل إليه أنه شيء يذكر، فإذا سمعه يدرّس أو يقرر أو يحدث فغر فاه وحملق بعينيه عجباً من هذه الأسمال أن تتكشف عن جوهر نفيس وعبقرية نادرة في العلم والزهد والتقوى. ولا عجب فالتراب مكمن الذهب، ولكن الناس في كل زمان ومكان يغرهم حسن الهيئة، وجمال الهندام، فإذا رأوا من هذه صفته وقروه وعظموه قبل أن يعرفوا ما وراء هذه البزة، وقد يكون فيها نخاع ضامر، وفكر بائر، وقلب حائر.

ترون بلوغ المجد أن ثيابكم
يلوح عليكم حسنها وبصيصها
وليس العلى درّاعة ورداؤها
ولا جبة موشية وقميصها

ويعجب المرء لأمر النووي، قدم من نوى يطلب العلم في دمشق ولا غرابة في ذلك، فكثير من طلاب العلم يفعل ذلك في القديم والحديث، ولكن العجب أن يُقْبِل هذا الفتى الحوراني الفقير فيزحمَ بمنكبه الضعيف طلاب العلم فيسبقهم ويتقدم عليهم، ولا يلبث أن يزحمَ من لقبوا بالعلماء حتى يدعَهم وراءه يكدحون للَّحاق به ثم يقصِرون، ثم يزحمَ كبار العلماء في عصره ومنهم بعض شيوخه فيحرز منهم قصب السبق. وهذه الأجيال من بعده وهذا التاريخ، شاهدان على ذلك فما من أحد في بلاد الإسلام من خاص وعام لا يسمع بالنووي ولا يذكره بأعلى نعوت المدح والثناء، أما من عاصروه من كبار العلماء فقد اختبؤوا في بطون كتب التراجم، فلا يعرفون إلا ببحث الخاصة عنهم. كل ذلك ولم يعش النووي إلا نحواً من خمس وأربعين سنة، وترك من الكتب النافعة المحققة المتقنة التي صنفها ما لو قسم على سِنيّ حياته لكان نصيب اليوم الواحد كراستين أو أكثر، وحسبك أن تنقل عن كتاب من كتب النووي قوله في فقه أو حديث، أو لغة أو ذكر لتكون حجتك بالغة ومعرفتك مدعمة بالدليل.

وقد أجمع على الوثـوق به وبنقله علماء المذاهب، وأحبوه، ولم يجدوا فيه ـ حياته كلها ـ ما يثلم دينه بل ما يثلم ورعه، فقد كان له ورع ثخين كما قال الذهبي، أي ورع شديد، أخذ بزمام نفسه فكفها لا عن المحرمات ولا عن الشبهات حسب، بل كفها

عن المباحات خشية أن يُطمع نفسه بالمباح فتجره إلى المشتبه ثم تجره إلى الحرام!! ودافعه إلى ذلك خوفه من الله تعالى. ولقد كان يرى رحمه الله في طلب العلم وتعليمه والتأليف فيه عبادةً وذكراً وطاعة، إذا قصد به وجه الله. وهكذا كان النووي كلما ازداد علماً ازداد من الله قرباً، وكلما ازداد قرباً ازداد علماً، وتحقق فيه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾.

ولم يكتف ـ رحمه الله ـ من العبادة والذكر بالعلم وحده، فهو صائم الدهر قائمه، ملازم لقراءة القرآن، وما نظن أنه ترك من الأذكار الثابتة ذكراً، والعالم العامل المبتغي وجه الله تعالى هو الذي يعلم كيف يصلي وكيف يذكر، فكلما ازداد معرفة ازداد عبودية لله وكلما ازداد عبودية لله ازداد قرباً منه ورفعة. وأما الجاهل فقد يذكر من غير أدب مع الله وقد يذكر دون خشية له، وقد يجعل من الذكر لهواً فيمتع شيطانه ونفسه غافلاً عن ربه، فلا يزداد منه إلا بعداً.

وهاك مثلاً من عبادة النووي الصافية المخلصة البريئة من شائبة الرياء التي هي عبادة السلف: يقول محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي: كنت ليلة في أواخر الليل بجامع دمشق والشيخ ـ أي النووي ـ واقف يصلي إلى سارية في ظلمة، وهو يردد قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ (٢٤)﴾ مراراً بحزن وخشوع، حتى

حصل عندي من ذلك شيء الله أعلم به.

هذا وما ندّعي أنا يمكن أن نفي النووي حقه بهذه المقدمة وهذا الكتاب، فهذا ما يعجز عنه من عاصره من العلماء، ويرحم الله تلميذه علاء الدين بن العطار إذ يقول: «وقد رأيت منه أموراً تحتمل مجلدات». ومع هذا اختصر ترجمته في جزء يسير. على أنه لم يأت بعده مؤرخ للرجال إلا وأتى على ذكره وخصوصاً الإمام الذهبي شيخ التراجم والجرح والتعديل، فما من مؤلف من مؤلفاته في التراجم أو في الطبقات إلا وترجمه وأثنى عليه أبلغ الثناء، وقد عرف الذهبي أنه ضنين بالثناء إلا لمن يستحق وعلى قدر ما يستحق.

وممن ترجمه أيضاً بكتاب خاص به السخاوي رحمه الله، ونقل من ابن العطار كثيراً، ولكن من نسخة ناقصة. ومنهم السحيمي، والسيوطي، وسمى رسالته «المنهج السوي».

أما طريقتنا في كتابنا هذا، فقد جمعنا ترجمته من كل ما ظفرنا به من كتب التراجم، وحاولنا ترتيبها وتنسيقها، والتقديم لها والتعليق عليها، بما يناسبها، قدر ما نعرف ونستطيع. وعمدنا إلى ترجمة كل علم ـ ما أمكننا ذلك ـ بما لا يتجاوز السطر الواحد باستثناء ترجمة تلاميذه أو رجال السند.

وبعد: يرحم الله النووي، لم يأخذ من الدنيا بكل ما فيها من متع وشهوات إلا القليل، بل الأقل الذي به تقوم حياته في

أدنى صورها، وترك سائرها لربه، لم يدع لحظة واحدة تمر ولا يزداد فيها علماً وديناً وتقوى.

وقلَّ جداً من قدر أن يصبر على ذلك صبره، ويسير سيره، وما عن قليل مضى في الآفاق ذكره، وصار مثلاً سائراً في زهده وورعه وعلمه وذكره.

دمشق الشام ١/ جمادي الآخرة/ ١٣٩٥هـ

١٠/ حزيران/ ١٩٧٥م

عبدالغني الدقر

عَصْــرالنَّــوَوي

عاش النووي ـ رحمه الله ـ آخر عصر الأيوبيين وكل عصر الملك الظاهر بيبرس من المماليك، وتمتاز هذه الفترة بنوع من الاستقرار، ولكنها مع ذلك كانت فترة عصيبة، فقد تظاهر فيها على غزو بلاد الشام قوتا البغي والشر والكفر: من صليبيين وتتار، ولولا أن الله هيأ ـ من قبل ـ نور الدين وصلاح الدين فكسرا من حدَّة الصليبيين، ثم هيأ بعدهما الملك الظاهر الشجاع الحازم المقدام، فخضد من شوكة التتار والصليبيين، وأوقع الهزيمة في صفوفهما، واسترجع كثيراً من البلاد المحتلة، لولا ذلك لكانت حال بلاد الشام مفزعة.

لا جَرَم لقد تمتعت بلاد الشام ـ وخصوصاً دمشق ـ بالاطمئنان الحذر، والاستقرار المتحفز، ولكنه إذا قيس إلى ما قبله ـ آخر عهد الأيوبيين ـ وإلى ما بعده في كثير من العهود، فإنه عهد ميمون مبارك، لولا بعض الهَنات.

هذا مجمل للحياة السياسية في عصر النووي.

أما الناحية العلمية فإن هذا العصر والذي بعده ـ أعني

القرنين السابع والثامن من الهجرة ـ من أزهر العصور، فقد حفلا بالكثير من العلماء المتمكنين الذين تركوا من المؤلفات الناضج المفيد.

وما نحن بسبيل التحدث عن القرن الثامن، ولكن ما نحن بصدده القرن السابع، الذي عاش فيه النووي بأقل من نصف قرن ودونك بعضاً من العلماء في كثير من العلوم، فهم المرآة المعبِّرة عن حال العلم في هذا العصر:

منهم في علوم الدين: ابن الصلاح علم المحدثين، والرافعي: كبير فقهاء الشافعية في قزوين، والنووي كبير فقهاء الشافعية في بلاد الشام وعلم المحدثين، وإسماعيل بن عبدالكريم المعروف: بابن المعلم، شيخ الحنفية في وقته، وعبد الرحمن بن محمد بن عساكر ابن أخي الحافظ أبي القاسم كان فقيه وقته، وعبدالكريم ابن الحرستاني خطيب دمشق، والفركاح الفزاري شيخ النووي، وهناك كثيرون غيرهم، وإنما نأتي بأمثلة.

ومنهم في علوم العربية وآدابها: ابن يعيش شارح المفصَّل للزمخشري، وشيخ ابن مالك، وابن القفطي وكان من مفاخر هذا القرن، وكان عالماً بعلوم جمة: من اللغة والنحو، والفقه والحديث، وعلوم القرآن والأصول، والمنطق، والنجوم والهندسة والتاريخ.

ومنهم في علوم التاريخ والتراجم: ابن العديم صاحب

تاريخ حلب، وابن خَلِّكان قاضي القضاة وصاحب كتاب وفيات الأعيان، وياقوت الحموي الرومي الجغرافي المؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء، وابن القفطي وقد تقدم، والعلامة أبو شامة صاحب كتاب الروضتين.

ومنهم في الهندسة: إبراهيم بن غنائم باني المدرسة الظاهرية الجوانية، وصاحب دار الهندسة نجم الدين يحيى بن اللبودي، وهو عالم بالحكمة والهندسة والعدد.

ومنهم في الحكمة والطب: ابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب الأديب، وعبد المنعم الجلياني الملقب بحكيم الزمان علامة في الطب والكحل والأدب، وسيف الدين علي الثعلبي الآمدي كان أذكى أهل زمانه وأكثرهم معرفة بالعلوم الحكمية، وشمس الدين الخويني عالم بالحكمة والشرع والطب، وبدر الدين ابن قاضي بعلبك عالم الطب.

ومنهم في التصوف: شيخ وقته، محيى الدين بن عربي الأندلسي فقد بلغ الذروة في فلسفة التصوف، وهو صاحب كتاب الفتوحات المكية والفصوص.

كل هؤلاء عاشوا في القرن الذي كان فيه النووي. وما أتيت إلا بأمثلة قليلة جداً بالنسبة لما حواه هذا العصر، وكل هؤلاء وإن وضعوا في القسم الذي شهروا به فقد شاركوا في علوم كثيرة.

والكلمة الجامعة لحال هذا العصر من ناحيته العلمية: أنه إن لم يكن عصر إبداع كعصور الاجتهاد، فهو ـ بجملته وأكثر علومه ـ عصر نقل متزن، وتقليد واع، وجمع في تحفظ، وتحقيق، وتحرير، وتصحيح، وتهذيب، بل أحياناً اجتهاد مقيّد حر.

ذلك لأن عصور الاجتهاد لم تدع لمن بعدها من ساحات العلوم إلا القليل، على قاعدة: «ما ترك الأول للآخر» أو على حد قول عنترة: «هل غادر الشعراء من متردَّم» فـ «علم الحديث» جمعه أئمته، وميزوا ضعيفه من صحيحه، ووضعوا رواته في ميزان الجرح والتعديل في القرنين الثاني والثالث، وتبعهما القرن الرابع. فما أتى القرن السابع حتى كانت أدواته مستكملة تقريباً، فالمحدث في هذا العصر همه قبل كل شيء أن يصل حبله من حيث الرواية بأئمة هذا الشأن مع حفظ ما انتهى إليه مما صنفوه والتحقيق في رواته وألفاظه.

وعلم الفقه الفضل فيه للأول والأعظم مجتهد المذهب، ثم جاء تلاميذه فنقحوا وصححوا حتى كثرت الأقوال واصطرعت الأدلة، فجاء من بعدهم فوضعوا الحق في نصابه على ما انتهى إليه اجتهادهم، فلما جاء القرن السابع لم يستسلم علماؤه لنتائج من قبلهم، ولكنهم بحثوا وتحرَّوا، فصححوا بعضاً وضعفوا بعضاً، وكل ذلك بالدليل، ومن قرأ كتب الرافعي أو النووي يجد مثالاً رائعاً لذلك.

ولا يجوز في الفقه أن تقال الكلمة الأخيرة، فلكل عصر قضاياه وأموره، فينبغي لعلماء الفقه أن يلاحظوا عصورهم بكل ما فيها، مع الرجوع إلى الأصول الثابتة من الكتاب والسنة، وقد يصدق هذا على فقهاء القرن السابع.

وعلم النحو الذي يمثله ابن مالك وأقرانه، لم يأتوا بجديد على ما كتب سيبويه والكثرة من البصريين، إلا في أشياء قليلة مبثوثة هنا وهناك لا تجاوز كلها الصفحات القليلة. ولكنه ـ رحمه الله ـ نقَّح ورتب ووضح، حتى صارت كتبه في النحو مثابة العلماء وطلابِ العلم في عصره وما أتى بعده من عصور، وهكذا بقية العلوم لا تخرج عما حددنا في صدر هذا الكلام.

وهكذا الحال في كل العلوم في هذا العصر، وما قلناه عن بعض العلوم مثال لما لم نفصِّل فيه خشية الإطالة.

والخلاصة: إن هذا العصر كان يعج بجميع العلوم التي عرفها أهل الإسلام، وزادوا عليها من التحقيق والتعليق والتصحيح أو التضعيف والأفهام الجديدة الشيء الكثير.

والظاهرة التي لا تخفى في علماء هذا العصر أنهم ـ إلا من شذَّ ـ يحرصون مع علمهم على العمل، فالتقوى رائدهم، والورع يحدو بهم، وكثرة العبادة عملهم في اليوم والليلة، وكانوا حريصين على أن تكون عباداتهم على السنة، ولا يخلو أن يكون

هناك نفر منهم قصروا بذلك، بل إن منهم من باع دينه بعرض من الدنيا وهم قِلة لا يعبأ الله بهم.

هذه خلاصة عن عصر النووي، والمقام يتسع لكتاب لا لمقدمة صغيرة في كتاب، وما نحن فيه ترجمة للنووي ـ رحمه الله ـ لا لعصر النووي.

أسرتـه ومَولده ونشأتـه

نوا:

ينسب الناس إلى بلد ما ليتعرفوا به، ونسبة الإمام النووي إلى «نوا» عكس ذلك، فقد عرفت بلده به، بل صارت خالدة بخلوده ما دام في الأرض إسلام، وما دام في الأرض فقه شافعي وعلماء فما ينطلق اسمه على أفواه الألوف من علماء الفقه الشافعي وعلماء الحديث، ولا كنيته ولقبه، وإنما تنطلق نسبته فيقولون: النووي، أو النواوي، وكان رحمه الله يكتبها بخطه: النووي. ورحم الله أبا حفص بن الوردي إذ يقول في نوا النووي:

لُقِّيـت خـيراً يـانـوا ... وحُرِسـت مـن ألـم النوى
فلقـد نَشا بـك زاهـد ... فـي العلـم أخلص ما نوى
وعلـى عـداه فضلـه ... فضلَ الحبوب على النوى

ونوى كانت في عصر النووي قاعدة الجولان من أرض حوران من أعمال دمشق[1]، وكان ينزل بها على عادة العرب «حِزام» جد

---

(١) تحفة الطالبين لابن العطار مصور «٣ ـ أ» ويقول ياقوت الحموي عنها: =

النووي الأعلى، فأقام بها، ورزقه الله ذرية إلى أن صار منهم عدد كثير[1].

اسم النووي ونسبه:

هو أبو زكريا يحيى، ابن الشيخ الزاهد الورع ولي الله أبي يحيى شرف بن مري[2]، بن حسن، بن حسين، بن محمد، بن جمعة، بن حِزام الحزامي النووي.

وكان هناك من يزعم أن نسبته «الحزامي» إلى حزام أبي حكيم الصحابي، وقد صحح ذلك النووي نفسه، فقد ذكر ـ رحمه الله ـ أن بعض أجداده كان يزعم أنها نسبة إلى حزام أبي حكيم الصحابي رضي الله عنه[3]. قال: وهو غلط[4].

وأما لقبه فقد لقب بمحيي الدين، وكان يكره أن يلقب به

= بليدة من أعمال حوران وقيل هي قصبتها، وهي منزل أيوب عليه السلام. وبها قبر سام بن نوح فيما زعموا.

(١) ترجمة النووي للسخاوي «٣».

(٢) ضبط الزبيدي في تاج العروس (مرى) بكسر الميم والقصر، وفي شرح الأربعين النووية لإبراهيم بن مرعي (مري) بضم الميم وكسر الراء، وكثيرون يضبطونها شكلاً بضم الميم وكسر الراء المشددة.

(٣) حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، صحابي قرشي، وهو ابن أخي خديجة أم المؤمنين، كان من سادات قريش في الجاهلية والإسلام، توفي سنة ٥٤ هـ.

(٤) تحفة الطالبين لابن العطار.

تواضعاً لله تعالى، أو أن الدين حي ثابت دائم غير محتاج إلى من يحييه، حتى يكون حجة قائمة على من أهمله أو نبذه، قال اللخمي[1]: وصح عنه أنه قال: لا أجعل في حلّ من لقبني محيي الدين[2].

والد النووي:

لا نعلم من حياة أجداده شيئاً، ويظهر أن حياتهم كانت معتادة، ولو كان لهم من علم أو جاه أو ولاية لما أغفل ذكرهم المترجمون.

أما أبوه شرف بن مري: فقد كان دكانياً بنوى[3] (أي له دكان يبيع فيها ويشتري) ووصفه تلميذ النووي علاء الدين بن العطار[4] بقوله: الشيخ الزاهد الورع وليّ الله[5]، ويقول الذهبي وكان شيخاً مباركاً[6]. ولما مات سنة ٦٨٥هـ صُلِّي عليه صلاة

---

(١) هو أحمد بن فرح بن أحمد الإشبيلي المحدث، وهو صاحب منظومة غرامي صحيح في المصطلح، توفي سنة ٦٩٩.

(٢) ترجمة النووي للسخاوي «٤».

(٣) المرجع السابق.

(٤) هو علي بن إبراهيم، كان أبوه عطاراً وجده طبيباً، صحب النووي ولازمه، واشتغل عليه، حتى كان يقال له مختصر النووي، توفي سنة ٧٢٤ هـ.

(٥) تحفة الطالبين مصور «٢ ـ ب».

(٦) ترجمة النووي للسخاوي «٧٦».

الغائب[1]، وهذا يدل على شهرة صلاحه. وواضح أنه عاش بعد وفاة ابنه تسع سنين وقد جاوز السبعين.

مولده:

في العشر الأوسط من المحرم، وقيل في العشر الأول سنة ٦٣١هـ ولد بنوى الإمام النووي[2].

نشأته:

عاش النووي في كنف أبيه ورعايته، وكان أبوه في دنياه مستور الحال، مباركاً له في رزقه، فنشأ النووي في ستر وخير وبقي يتعيش في الدكان لأبيه مدة كما يقول الحافظ الذهبي[3].

وكأن الله قد أعدَّه منذ طفولته وصباه لحمل عبء الوراثة النبوية في العلم والورع والصلاح، وهذا ما أشار إليه بعض الصالحين الكبار إذ قال: إنه حين ولد كُتب من الصادقين[4]

ويثبت ذلك أنه لما بلغ من العمر سبع سنين، كان نائماً ليلة السابع والعشرين من رمضان بجانب والده، فانتبه نحو نصف الليل. يقول والده: وأيقظني، وقال: يا أبتي، ما هذا الضوء

---

(١) المرجع السابق.
(٢) تحفة الطالبين مصور «٣ / أ».
(٣) المرجع السابق.
(٤) السخاوي «٣٤».

الذي قد ملأ الدار؟ فاستيقظ أهله جميعاً فلم نر كلنا شيئاً، قال والده: فعرفت أنها ليلة القدر[1].

ولما بلغ عشر سنين[2] جعله أبوه في دكان، فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن[3]. واتفق أنه في سنة نيف وأربعين وستمائة مر بقرية نوى الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي المشهور بولايته فرأى النووي وهو ابن عشر سنين، والصبيان يكرهونه على اللعب معهم، وهو يهرب منهم، ويبكي لإكراههم، ويقرأ القرآن في تلك الحال، يقول الشيخ ياسين: فوقع في قلبي محبته، فأتيت الذي يقرئه القرآن فوصيته به، وقلت له: هذا الصبي يرجى أن يكون أعلم أهل زمانه وأزهدهم، وينتفع الناس به، فقال لي: أمنجم أنت؟ فقلت: لا، وإنما أنطقني الله بذلك، فذكر ذلك لوالده، فحرص عليه إلى أن ختم القرآن، وقد ناهز الاحتلام[4].

وهكذا كانت فراسة هذا الشيخ المراكشي أنفع للمسلمين قاطبة من كل عمل صالح له، إذ كان بسببه وسعيه ظهور عالم زاهد تقي، قل أن يسمح الزمان بمثله إلا في قرون متطاولة، وما

---

(١) الطبقات الكبرى للسبكي «٨/ ٣٩٦».

(٢) ترجمة النووي للسخاوي «٣٤».

(٣) تحفة الطالبين «٣ / ب».

(٤) المرجع السابق.

نظن أنه جاء من بعده مثله، بارك الله له في عمره القصير، وصنع منه في عصره وما بعده أعلمَ الناس وأزهدَهم وآمرَهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر.

هذا ما عثرنا عليه من ومضات في حياة النووي في بلده قبل أن يرتحل إلى دمشق. هذا وقد لبث في بلده إلى الثامنة عشرة من عمره، فبماذا كان يملأ هذه الفترة من فتوته؟

لم تنجدنا الأخبار عنه بغير ما قدمنا، والظاهر أنه كان منصرفاً إلى إعانة أبيه في دكانه، ومقبلاً على التزود بالقليل من العلم عند بعض الشيوخ من أهل العلم، الذين لم تكن تخلو منهم قصبة أو قرية حينئذٍ.

رحلته إلى دمشق وتحصيله العلم

قدومه لدمشق:

مما أجمع عليه من أرخ للنووي وفي رأسهم تلميذه ابن العطار[1] أنه: في سنة تسع وأربعين وستمائة قدم النووي دمشق قدم به والده أبو يحيى وعمره ثماني عشرة سنة.

وكانت دمشق محجَّ العلماء وطلبة العلم من أقطار العالم الإسلامي، وحسبك لتعلم ذلك أن تلقي نظرة على تاريخ دمشق للحافظ المؤرخ ابن عساكر، وهو أعظم تاريخ أُلِّف لبلد ما، فقد جاوز مقداره ثمانين مجلدة!! ترجم فيه مؤلفه لعلماء دمشق وأدبائها وشعرائها وأمرائها ومن قصد إليها أو مر بها من هؤلاء.

وما كان يُرى أنه يمكن أن يستكمل عالم علمه ما لم يؤمَّ

---

(١) تحفة الطالبين مصور ٣ / ب والسخاوي: ٥ والدارس ١/ ٢٦٨ والبداية والنهاية ١٣/ ٢٧٨. وما خالف هذا الإجماع إلا ما جاء في مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ١/ ٣٩٨ فقد ذكر: أنه قدم دمشق سنة خمسين وستمائة وله تسع وعشرون سنة، وقد يكون هذا الخطأ من سبق القلم.

إحدى عواصم العالم الإسلامي، وقمر هذه العواصم حينئذٍ دمشق ليس في علوم الشريعة والعربية حسب، بل في جميع ما عرف من علوم في تلك العصور.

وفراسة الشيخ الصالح المراكشي في النووي الفتى وبدوّ النجابة عليه، واشتعال الرغبة فيه لطلب العلم، كل ذلك حدا بأبيه أن يصطحب ولده إلى دمشق ليأخذ العلم عن كبار علمائها، فأين كان مسكنه؟ وكيف كانت دراسته؟ وعلى أي الشيوخ بدأ؟ وغير ذلك سيأتي في الفصول الآتية.

بدء اشتغاله بطلب العلم:

كان أول ما اهتم النووي به ـ بعد أن بلغ دمشق ـ أن يصل حبله بأحد العلماء يلازمه ويقرأ عليه، ثم أن يجد له مأوى.

ويظهر أن أولَ ما قصده عند دخوله دمشق جامعها الكبير، وكذلك كانت عادة الغرباء يَؤمون قبل كل شيء المساجد، وما تذكر دمشق في العادة إلا ويذكر معها جامعها الأكبر الأموي، ولقي النووي أول من لقي من العلماء خطيب الجامع الأموي وإمامه الشيخ جمال الدين عبد الكافي بن عبد الملك بن عبدالكافي الربَعي الدمشقي[1]، وما اجتمع إليه حتى عرَّفه مقصده

(١) السخاوي ٨. والشيخ جمال الدين المذكور كان فقيهاً فاضلاً، وناب في القضاء مدة ثم ترك واقتصر على الخطابة بالجامع الأموي والإمامة، توفي سنة ٦٨٩ هـ.

ورغبته في طلب العلم، فأخذه وتوجه به إلى حلقة مفتي الشام تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن ضياء الفزاري، عرف بالفركاح[1] رحمه الله، فقرأ عليه دروساً، وبقي يلازمه مدة وهذا أول شيخ للنووي.

سكنه بالرواحية:

في هذه الفترة التي أمضاها النووي عند شيخه التاج الفركاح يقرأ عليه لم يكن له موضع يأوي إليه كما يأوي أمثاله من طلبة العلم في المدارس الكثيرة المبثوثة في دمشق، فسأل النووي شيخه التاج موضعاً يسكنه، ولكن لم يكن بيد شيخه من المدارس سوى الصارمية[2] ولا بيوت لها، فدله شيخه الفركاح على الكمال إسحاق المغربي[3] بالرواحية[4]، فتوجه إليه ولازمه

---

(١) الفركاح: فقيه أهل الشام كما يقول التاج السبكي تفقه على العز بن عبد السلام، وتوفي سنة ٦٩٠. وبنو الفركاح: قبيلة بالشام.

(٢) هي مدرسة داخل باب الجابية قبلي القلعة في حي كان يسمى حي سيدي عمود وبانيها صارم الدين جوهر، وقد درست من زمن بعيد وأصبحت بيوتاً، وحي سيدي عمود كله أحرقه الفرنسيون أيام الثورة السورية سنة ١٣٤٤، ولا يزال موضعه يقال له الحريقة في هذه الأيام.

(٣) هو إسحاق بن أحمد المغربي معيد ابن الصلاح المحدث الكبير في الرواحية وتلميذه، كان من المشهورين بالعلم والصلاح، تفقه عليه خلائق، توفي سنة ٦٥٠ هـ.

(٤) الرواحية: مدرسة مكانها شرقي مسجد ابن عروة الذي هو لصيق =

واشتغل عليه[١]، ومنحه الشيخ في هذه المدرسة بيتاً لطيفاً، عجيب الحال[٢]، فسكنه واستقر فيه، واستمر فيه حتى مات، وقال اليافعي: وسمعت من غير واحد أنه إنما اختار النزول بها ـ أي بالرواحية ـ على غيرها لحلها[٣]، إذ هي من بناء بعض التجار، وكان قوته بها جراية المدرسة لا غير[٤]، بل كان يتصدق منها، ثم ترك تعاطيها[٥].

حجه:

بعد نحو سنتين من قدومه إلى دمشق صحبه أبوه إلى الحج يقول النووي[٦]: فلما كانت سنة إحدى وخمسين ـ أي وستمائة ـ حججت مع والدي، وكانت وقفة جمعة، وكان رحيلنا من أول رجب، قال: فأقمت بمدينة رسول الله ﷺ نحواً من شهر ونصف.

= الجامع الأموي من ناحية بابه الشرقي شمالي جيرون. يقول بدران: شاهدت موضع هذه المدرسة فرأيتها قد صارت داراً. انظر الحديث عنها في مسامرات بدران والدارس للنعيمي.

(١) السخاوي «٨».

(٢) من كلام التاج السبكي في طبقات الشافعية ٨/ ٣٩٧.

(٣) مرآة الجنان ٤/ ١٨٣.

(٤) تحفة الطابيين ٣/أ.

(٥) السخاوي «٥» والجراية: خبز يوزع على الطلبة كل يوم. صرح به الذهبي في التذكرة.

(٦) تحفة الطابيين ٤ / أ.

وقال ابن العطار أيضاً: قال لي والده رحمه الله: لما توجهنا من نوى للرحيل أخذتْه الحمَّى فلم تفارقه إلى يوم عرفة. قال: ولم يتأوه قط، فلما قضينا المناسك ووصلنا إلى نوى، ونزل إلى دمشق، صبّ الله عليه العلم صباً، ولم يزل يشتغل بالعلم ويقتفي آثار شيخه المذكور[1] في العبادة من الصلاة، وصيام الدهر، والزهد والورع، وعدم إضاعة شيء من أوقاته إلى أن توفي رحمه الله.

وهناك[2] من قال: إنه حج مرتين وفهموا ذلك من قول الكمال الدميري، فقد قال: إنه حج مرة أخرى، ويستأنس أيضاً من قول العماد ابن كثير في تاريخه أنه حج في مدة إقامته بدمشق، ولما رجع من حجة الإسلام لاحت عليه ـ كما يقول الذهبي في سير النبلاء ـ أمارات النجابة والفهم وتزود بمدد من الله في بيته الحرام وبركات من رسول الله ﷺ.

جده في طلب العلم:

حين استقر النووي في المدرسة الرواحية، واطمأنت نفسه في مسجده أقبل على طلب العلم بكل ما يعتلج بقلبه وعقله من شغف وجد واستعداد، ومن نهم للعلم لا يسده شبع، ولقد كان

(١) المراد به الشيخ المراكشي، وقد تقدم ذكره.
(٢) السخاوي «٦».

ذلك منه مضرب المثل، ومثار العجب، قال رحمه الله: وبقيت سنتين[1] لم أضع جنبي إلى الأرض.[2]

ويقول الذهبي[3]: «وضرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليلاً ونهاراً، وهجره النوم إلا عن غلبة، وضبط أوقاته بلزوم الدرس أو الكتابة أو المطالعة أو التردد على الشيوخ»[4].

وذكر القطب اليونيني[5]: أنه كان لا يضيع له وقت في ليل ولا نهار إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتى إنه في ذهابه في الطريق وإيابه، يشتغل في تكرار محفوظة، أو مطالعة، وإنه بقي على التحصيل ـ على هذا الوجه ـ ست سنين[6].

وحكى البدر بن جماعة[7] أنه سأله عن نومه، فقال: إذا

---

(١) وردت سنين في الدارس، وفي سائر المصادر كما أثبتناه.

(٢) الدارس ١/٢٦٨.

(٣) هو شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان التركماني الذهبي، محدث عصره ومؤرخه، وشيخ الجرح والتعديل، توفي سنة ٧٤٨ هـ.

(٤) السخاوي «٧».

(٥) وهو موسى بن محمد اليونيني البعلبكي قطب الدين أبو الفتح مؤرخ، توفي في دمشق سنة ٧٢٦ هـ.

(٦) السخاوي «١١ ـ ١٢».

(٧) هو قاضي القضاة محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة الكناني الحموي، توفي بمصر سنة ٧٣٣ هـ.

غلبني النوم استندت إلى الكتب لحظة وأنتبه[1]. وفي مفتاح السعادة[2]: كان كثير السهر مكباً على العلم والعمل.

وكيف لا يكون كذلك وليس شيء بعد الإيمان ـ في نظر الإسلام ـ أقدسَ معنى وأعلى شأناً من العلم، فقد ذكر لفظ العلم في القرآن أكثر من تسعين مرة في معانيها الكثيرة التي ترجع جميعها إلى معنى اليقين في أي شيء، من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[5].

أما الأحاديث النبوية الصحيحة وأقوال الصحابة والتابعين فمستفيضة كثيرة، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع».

وفي مقدمة شرح المهذب[6] للنووي أحاديث وأقوال لكبار

---

(١) السخاوي «٣٦».
(٢) «١/٣٩٨».
(٣) فاطر «٢٨».
(٤) الزمر «٩».
(٥) المجادلة «١١».
(٦) «١/٣٦».

الصحابة في فضل العلم، من ذلك قول علي رضي الله عنه: «العالم أعظم أجراً من الصائم القائم الغازي في سبيل الله» وقول أبي ذرّ وأبي هريرة رضي الله عنهما: «باب من العلم نتعلمه أحب إلينا من ألف ركعة تطوع، وباب من العلم نعلّمه ـ عُمِل به أو لم يُعمل ـ أحب إلينا من مائة ركعة تطوعاً» وقالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إذا جاء الموت طالبَ العلم وهو على هذه الحال مات وهو شهيد». ويقول النووي في مقدمة شرح مسلم: «إن الاشتغال بالعلم من أفضل القرب وأجل الطاعات، وأهم أنواع الخير وآكد العبادات، وأولى ما أُنفقت فيه نفائس الأوقات، وشمَّر في إدراكه والتمكن به أصحاب الأنفس الزكيات، وبادر إلى الاهتمام به المسارعون إلى الخيرات، وسابق إلى التحلي به مستبقو المكرمات». ويقول النووي في مقدمة شرح المهذب[1]: «والحاصل أنهم متفقون على أن الاشتغال بالعلم أفضل من الاشتغال بنوافل الصوم والصلاة والتسبيح ونحو ذلك من نوافل عبادات البدن، ومن دلائله ـ سوى ما سبق ـ : أن نفع العلم يعم صاحبه والمسلمين، والنوافل المذكورة مختصة به، ولأن العلم مصحح، فغيره من العبادات مفتقر إليه، ولا ينعكس، ولأن العلماء ورثة الأنبياء، ولا يوصف المتعبدون بذلك، ولأن العابد تابع للعالم مقتدٍ به مقلد له في عبادته وغيرها، واجب عليه

---

(١) «١/ ٣٧».

طاعته ولا ينعكس، ولأن العلم تبقى فائدته وأثره بعد صاحبه، والنوافل تنقطع بموت صاحبها، ولأن العلم صفة الله تعالى، ولأن العلم فرض كفاية».

وقال إمام الحرمين[١]: فرض الكفاية أفضل من فرض العين من حيث أن فاعله يسد مسد الأمة ويسقط الحرج عن الأمة، وفرض العين قاصر العين.

ثم يقول النووي: **اعلم أن ما ذكرناه من الفضل في طلب العلم إنما هو في مَن طلبه مريداً به وجه الله تعالى لا لغرض من الدنيا، ومن أراده لغرض دنيوي كمال أو رياسة أو منصب أو جاه، أو شهرة أو استمالة الناس إليه، أو قهر المناظرين أو نحو ذلك فهو مذموم.**

هذا وقد أثمر في العلم النووي رحمه الله من السنة الأولى، فقد حفظ التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي في نحو أربعة أشهر ونصف، ثم حفظ ربع العبادات من المهذب لأبي إسحاق أيضاً في باقي السنة[٢]، وعرض حفظه لكتاب التنبيه على ابن رزين[٣]

---

(١) هو عبد الملك بن عبدالله بن يوسف الجويني، لقب بإمام الحرمين، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي، توفي سنة ٤٧٨ هـ.

(٢) السخاوي «٥».

(٣) هو محمد بن الحسين بن رزين، قاضي القضاة بالديار المصرية، توفي سنة ٦٨٠ هـ.

في سنة خمسين وستمائة. يقول السخاوي[1]: فقد قرأت بخط العز القاضي أبي عمر بن جماعة[2]:

وقفت على ورقة بخط الحافظ عفيف الدين أبي السيادة المطري[3]: أنه شاهد على نسخة صاحبه الفقيه الإمام بدر الدين ابن الصائغ الدمشقي الشافعي[4] من كتاب التنبيه ما مثاله:

(الحمد لله كما هو أهله، عرض عليَّ الفقيه أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي، من أول كتاب التنبيه في الفقه هذا وإلى آخره؛ مواضع امتحنت فيها حفظه، دلَّت على ذلك وآذنت بتكراره على جمعه وتحصيله، وحرصه على العلم، وفقني الله وإياه له وللعمل به، وذلك في مجلس واحد لسبع مضين من شهر ربيع الأول سنة خمسين وستمائة) أي في السنة التالية لنزوله.

---

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن محمد شمس الدين السخاوي، مؤرخ حجة، توفي سنة ٩٠٢ هـ.

(٢) سبقت ترجمته ص ٢٩.

(٣) وفي الدرر الكامنة: الطبري، وفي طبقات الشافعية المطري كما أثبتناه، وهو عبدالله بن محمد بن أحمد الطبري ثم المكي عفيف الدين بن برهان، من المحدثين، توفي بالمدينة سنة ٧٦٥ هـ.

(٤) هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن أبي الحسن الزمرذي المعروف بابن الصائغ، بارع في اللغة والنحو، توفي سنة ٧٧٦ هـ، ولقبه في الدرر الكامنة: شمس الدين.

كتبه محمد بن الحسين بن رزين الشافعي حامداً مسلِّماً مستغفراً.

ثم إنه كان ـ أول طلبه أيضاً ـ يقرأ كل يوم اثني عشر درساً على المشايخ شرحاً وتصحيحاً: درسين في الوسيط، وثالثاً في المهذب، ودرساً في الجمع بين الصحيحين، وخامساً في صحيح مسلم، ودرساً في اللمع لأبن جني[1] في النحو، ودرساً في إصلاح المنطق لابن السكيت[2] في اللغة، ودرساً في التصريف، ودرساً في أصول الفقه ـ تارة في اللمع لأبي إسحاق[3] وتارة في المنتخب للفخر الرازي[4] ـ ودرساً في أسماء الرجال، ودرساً في أصول الدين ـ وهو التوحيد ـ . قال النووي: وكنت أعلق جميع ما يتعلق بها من شرح مشكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة، وبارك الله لي في وقتي واشتغالي، وأعانني عليه[5].

---

(١) هو عثمان بن جني أبو الفتح النحوي، من أحذق علماء النحو والتصريف، توفي سنة ٣٩٢ هـ.

(٢) هو يعقوب بن إسحاق أبو يوسف بن السكيت، نحوي لغوي مشهور، توفي سنة ٢٤٤ هـ.

(٣) هو إبراهيم بن علي الفيروزآبادي الشيرازي مفتي الأمة وعالمها في عصره، توفي سنة ٤٧٦ هـ.

(٤) هو محمد بن عمر بن الحسن أوحد زمانه في المعقول والمنقول توفي سنة ٦٠٦ هـ.

(٥) تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٧٠ والسخاوي «٦».

اثنا عشر درساً يقرأها على المشايخ كل يوم شرحاً وتصحيحاً ويعلق ما يتعلق بها من شرح مشكل وإيضاح عبارة وضبط لغة، تحتاج كل يوم إلى اثنتي عشرة ساعة على أقل تقدير، وتحتاج إلى مراجعة ما يجب أن يراجع وحفظ ما يجب أن يحفظ ـ بأدنى التقدير ـ إلى اثنتي عشر ساعة، فهذه أربع وعشرون ساعة، فمتى ينام؟ ومتى يأكل؟ ومتى يقوم بعبادته؟ ومتى يتهجد في ليله؟ ومعروف أنه سبَّاق إلى الطاعات والعبادات؟ متى يكون هذا كله؟ وهو محتاج إلى دراسته ومراجعته إلى أربع وعشرين ساعة في اليوم والليلة. هنا يبدو إكرام الله إياه وتفضله عليه، وذلك بأن بارك الله له في وقته، فمنحه القدرة على أن ينتج في يوم ما ينتج غيره في يومين، وفي سنة ما ينتجه غيره في سنتين. وبهذا نفسر هذه الوثبة الهائلة التي جعلت منه في نحو عشر سنوات عالماً في درجة كبار علماء عصره، ثم جعلت منه إمام عصره، كما نفسر هذه الكثرة من مؤلفاته المتقنة الرائعة في فترة لا تتجاوز خمسة وعشرين سنة هي كل عمره في العلم تعلماً وتعليماً وتأليفاً.

شُيُوخُهُ

ما كان يعتد بعلم عالم حتى تعرف شيوخه، لأن في الشيوخ نسب العلم والعلماء، يقول النووي في هذا الصدد: «وهذا ـ أي ذكر الشيوخ وتسلسلهم ـ من المطلوبات المهمات، والنفائس الجليلات، التي ينبغي للمتفقه والفقيه معرفتها، وتقبح به جهالتها فإن شيوخه في العلم آباء في الدين، وصلة بينه وبين رب العالمين، وكيف لا يقبح جهله الأنساب[1] والوصلة بينه وبين ربه الكريم الوهاب، مع أنه مأمور بالدعاء لهم وبرهم وذكر مآثرهم والثناء عليهم وشكرهم»[2].

وللنووي رحمه الله شيوخ متعددون في كل علم اشتغل به، وخصوصاً علمي الفقه والحديث فإنهما غاية الغايات من علمه، وبهما كان إمام عصره، وسنورد شيوخه في كل علم.

شيوخه في الفقه:

---

(١) في تهذيب الأسماء المطبوعة: جهل الإنسان، وما أثبتناه كما في السخاوي نقلاً عن تهذيب الأسماء.

(٢) تهذيب الأسماء «١/ ١٨» والسخاوي «٦٣».

تقدم في «بدء اشتغاله» أنه أول قدومه إلى دمشق لقي أول من لقي من العلماء خطيب الأموي الشيخ جمال الدين عبدالكافي ولم يقرأ عليه شيئاً، ولكنه أخذه وتوجه به إلى حلقة مفتي الشام تاج الدين الفزاري المعروف بالفركاح[١]، فلازمه يقرأ عليه مدة، وهذا أول شيخ للنووي، ثم دلَّه الفركاح على الكمال إسحاق المغربي فلازمه، وأكثر قراءته عليه، وأكثر انتفاعه عليه[٢]، ويجعله النووي أولَ شيوخه، ويحدث عن انتفاعه بدروسه وعن تشجيعه وتقديره بقوله: وجعلت أشرح وأصحح على شيخنا الكمال إسحاق المغربي، ولازمته فأعجب بي، لما رأى من ملازمتي للاشتغال وعدم اختلاطي بالناس، وأحبني محبة شديدة، وجعلني معيد الدرس بحلقته لأكثر الجماعة[٣].

ثم كان من شيوخه في الفقه بعد إسحاق المغربي مفتي دمشق: عبد الرحمن بن نوح، ثم عمر بن أسعد الإربلي، ثم أبو الحسن سلاَّر بن الحسن الأربلي.

يقول النووي في معرض ذكر شيوخه في الفقه وتسلسلهم إلى إمام مذهبه الإمام الشافعي رضي الله عنه ثم إلى النبي ﷺ[٤]:

---

(١) تقدمت ترجمتهما في هامش الصحيفة ٢٦ و ٢٧.

(٢) كما يقول الأسنوي (الدارس ١/ ٢٥).

(٣) السخاوي «٦» والدارس «١/ ٣٥».

(٤) تهذيب الأسماء «١/ ١٨».

«فأما أنا فأخذت الفقه قراءة وتصحيحاً وسماعاً وشرحاً وتعليقاً عن جماعات[1]: أولهم شيخي الإمام المتفق على علمه وزهده، وورعه وكثرة عبادته، وعظم فضله وتميزه في ذلك على أشكاله: أبو إبراهيم إسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي[2] ثم المقدسي رضي الله عنه وأرضاه، وجمع بيني وبينه وبين سائر أحبابنا في دار كرامته مع من اصطفاه.

ثم شيخنا أبو محمد عبد الرحمن بن نوح بن محمد بن إبراهيم بن موسى المقدسي[3] ثم الدمشقي، الإمام العارف الزاهد العابد الورع المتقن، مفتي دمشق في وقته رحمه الله.

ثم شيخنا أبو حفص عمر بن أسعد بن أبي غالب الربعي الإربلي الإمام المتقن رضي الله عنه[4].

ثم شيخنا أبو الحسن سلّار بن الحسن الإربلي ثم الحلبي

---

(١) نترجم أساتيذه فقط، ولا يتسع المجال إلى ترجمة من فوقهم في هذا التسلسل.

(٢) كان من المشهورين بالعلم والصلاح وقرأ عليه النووي نحو سنة إذ توفي سنة ٦٥٠ هـ.

(٣) كان أعرف الناس بالمذهب وأجل أصحاب ابن الصلاح توفي سنة ٦٥٤ هـ.

(٤) لم يزد على ذلك في ترجمته في الطبقات الكبرى ولم يذكر وفاته ولم أجده في غيرها.

ثم الدمشقي، المجمع على إمامته وجلالته وتقدمه في علم المذهب على أهل عصره بهذه النواحي رضي الله عنه[1].

وتفقه شيوخنا الثلاثة الأولون على شيخهم الإمام أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان المعروف بابن الصلاح، وتفقه هو على والده، وتفقه والده ـ في طريقة العراقيين ـ على أبي سعيد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن علي بن أبي عصرون الموصلي، وتفقه أبو سعيد على القاضي أبي علي الفارقي، وتفقه الفارقي على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وتفقه الشيخ أبو إسحاق على القاضي أبي الطيب طاهر بن عبد الله الطبري، وتفقه أبو الطيب على أبي الحسن محمد بن علي بن سهل بن مصلح الماسرجسي، وتفقه الماسرجسي على أبي إسحاق إبراهيم ابن أحمد المروزي، وتفقه أبو إسحاق على أبي العباس أحمد بن عمر بن سريج، وتفقه ابن سريج على أبي القاسم عثمان بن بشار الأنماطي، وتفقه الأنماطي على أبي إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزني، وتفقه المزني على أبي عبد الله محمد بن أدريس الشافعي رضي الله عنه. وتفقه الشافعي على جماعات: منهم أبو عبد الله مالك بن أنس إمام المدينة، ومالك على ربيعة عن أنس، وعلى نافع عن ابن عمر كلاهما عن النبي ﷺ، والشيخ الثاني

---

(١) توفي سنة ٦٧٠ هـ، ويقول النووي عنه أيضاً: هو إمام المذهب في عصره والمرجوع إليه في حل مشكلاته.

للشافعي رحمه الله سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم. والشيخ الثالث للشافعي رضي الله عنه أبو خالد مسلم بن خالد مفتي مكة وإمام أهلها وتفقه مسلم على أبي الوليد عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وتفقه ابن جريج على أبي محمد عطاء بن أسلم أبي رباح، وتفقه عطاء على أبي العباس عبد الله بن عباس، وأخذ ابن عباس عن رسول الله ﷺ، وعن عمر بن الخطاب وعلي وزيد بن ثابت وجماعات من الصحابة رضي الله عنهم عن رسول الله ﷺ.

وأما طريقة أصحابنا الخراسانيين، فأخذتها عن شيوخنا المذكورين، وأخذها شيوخنا الثلاثة عن أبي عمرو عن والده عن أبي القاسم البزري الجزري، عن أبي الحسن علي بن محمد ابن علي الكِيا الهرَّاسي، عن أبي المعالي عبد الملك بن عبد الله ابن يوسف بن عبد الله بن يوسف إمام الحرمين، عن والده أبي محمد عن أبي بكر عبدالله بن أحمد بن عبد الله بن أحمد القفال المروزي الصغير وهو إمام طريقة خراسان، عن أبي زيد محمد ابن أحمد بن عبد الله بن محمد المروزي عن أبي إسحاق المروزي عن ابن سريج كما سبق.

وتفقه شيخنا الإمام أبو الحسن سلاَّر على جماعات، منهم الإمام أبو بكر الماهاني، وتفقه الماهاني على ابن البزري بطريقه السابق فهذا «مختصر السلسلة».

يقول النووي: «ومعلوم أن كل واحد من هؤلاء أخذ عن جماعة بل جماعات، لكن أردت الاختصار، وبيان واحد من شيوخ كل واحد، وذكرت أجلَّهم وأشهرهم».

شيوخه في الحديث:

سنتحدث عن منزلة النووي محدثاً عند حديثنا عن العلوم التي قرأها وأقرأها وبرع فيها في فصل «علوم النووي» ونقتصر هنا على ذكر شيوخه الذين سمع منهم أو تلقى عنهم.

فمن شيوخه: إبراهيم بن عيسى المرادي الأندلسي ثم المصري ثم الدمشقي[1]، يقول النووي: صحبته نحو عشر سنين، لم أرَ منه شيئاً يكره[2].

ومنهم: أبو إسحاق إبراهيم بن أبي حفص عمر بن مضر الواسطي، ومنه سمع جميع صحيح مسلم بن الحجاج، وسآتي على ذكر سنده لمسلم عن طريق شيخه المذكور[3].

ومنهم: الشيخ زين الدين أبو البقاء خالد بن يوسف بن سعد

---

(١) قال فيه النووي: الإمام الحافظ المتقن المحقق الضابط الزاهد الورع، الذي لم تر عيني في وقتي مثله، توفي بمصر سنة ٦٦٨ هـ من الطبقات ٨/ ١٢٢.

(٢) الطبقات «٨/ ١٢٢».

(٣) وصفه النووي بقوله: الشيخ الأمين العدل الرضي، كما في شرح مسلم ١/ ٨.

النابلسي[1].

ومنهم: الرضي بن البرهان.

ومنهم: شيخ الشيوخ[2] عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصاري الحموي الشافعي[3].

ومنهم: زين الدين أبو العباس بن عبد الدائم المقدسي.

ومنهم: أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي[4]، يقول تلميذه ابن العطار: وهو أجل شيوخه[5].

ومنهم: قاضي القضاة عماد الدين أبو الفضائل عبد الكريم ابن عبد الصمد بن محمد الحرستاني خطيب دمشق[6].

ومنهم: تقي الدين أبو محمد إسماعيل بن أبي إسحاق

---

(١) يقول الذهبي عنه: الإمام المفيد المحدث الحافظ، ويقول: كان ذا اتقان وفهم ومعرفة وعلم، وكان ثقة متثبتاً، ويقول: وحدث عنه الشيخ محيي الدين النووي في جملة من حدث عنه، توفي سنة ٦٦٣ هـ. من التذكرة ١٤٤٧، وكذا الدارس (١٠٦).

(٢) كذا في التذكرة والطبقات.

(٣) وصفه في الطبقات بأنه كان من أذكياء بني آدم، وبرع في الفقه والشعر وحدث كثيراً، توفي سنة ٦٦٢ هـ. من الطبقات ٨/٢٥٨.

(٤) من أئمة الحديث في عصره، توفي سنة ٦٨٢ هـ.

(٥) تحفة الطالبين مصورة (٨ / ب).

(٦) من كبار المحدثين، توفي سنة ٦٦٢ هـ.

إبراهيم بن أبي اليسر[1] التنوخي.

ومنهم: جمال الدين أبو زكريا يحيى بن أبي الفتح الصيرفي الحرّاني.

ومنهم: أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد البكري الحافظ.

ومنهم: الضياء بن تمام الحنفي واسمه ـ كما في هامش الجواهر المضية ـ أبو بكر محمد بن نصرالله بن عبد العزيز[2].

ومنهم: المفتي جمال الدين عبدالرحمن بن سالم بن يحيى الأنباري ثم الدمشقي الحنبلي[3].

ومنهم: شمس الدين بن أبي عمرو، وغير هؤلاء من هذه الطبقة[4].

شيوخه في علم الأصول:

يقول تلميذه ابن العطار[5]: قرأ ـ يعني علم الأصول ـ على

---

(١) وصفه الذهبي في التذكرة بأنه كبير المحدثين ومسندهم الإمام تقي الدين، وذكر وفاته أنها سنة ٦٧٢ هـ.
(٢) ووصفه في الجواهر: بأنه إمام كبير محدث ولم يذكر وفاته.
(٣) توفي سنة ٦٦١ هـ كما في التذكرة.
(٤) استخرجنا أسماء شيوخه هؤلاء من التحفة لتلميذه ابن العطار، والتذكرة، والدارس، والطبقات الكبرى، وترجمة النووي للسخاوي.
(٥) تحفة الطالبين مصورة ٧ / ب.

جماعة، أشهرهم وأجلهم العلامة القاضي أبو الفتح عمر بن بندار ابن عمر بن علي بن محمد التفليسي الشافعي[1] رحمه الله، قرأ عليه المنتخب للإمام فخر الدين الرازي، وقطعة من كتاب المستصفى للغزالي[2]، وقرأ غيرهما من الكتب على غيره.

شيوخه في النحو واللغة:

قرأ النحو على الشيخ أحمد بن سالم المصري وغيره[3]، وقرأ على ابن مالك[4] كتاباً من تصنيفه وعلق عليه شيئاً[5].

وقرأ على الفخر المالكي: اللمع لأبن جني.

وقرأ على الشيخ أحمد بن سالم المصري المذكور: كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت بحثاً، وكذا كتاباً في التصريف.

---

(١) في الطبقات الكبرى: أحد العلماء المشهورين، جالس أبا عمرو بن الصلاح واستفاد منه، وكان نافذ الكلمة عند التتار فحصل للمسلمين به خير كثير، توفي سنة ٦٧٢ هـ.

(٢) حجة الإسلام وفيلسوفه وكبير فقهائه ومتصوفيه، اسمه محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، توفي سنة ٥٠٥ هـ.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن سالم المصري النحوي اللغوي التصريفي، قال الذهبي: ماهر بالعربية محقق بها، توفي سنة ٦٦٤ هـ.

(٤) هو محمد بن عبدالله بن عبدالله بن مالك العلامة جمال الدين أبو عبدالله الطائي الجياني إمام النحاة، وحافظ اللغة، توفي سنة ٦٧٢ هـ.

(٥) تحفة الطالبين مصورة ٧ / ب.

يقول النووي: وكان لي عليه درس إما في كتاب سيبويه[1] وإما في غيره (الشك من تلميذه ابن العطار).

(١) هو عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي الملقب سيبويه، إمام النحاة، توفي سنة ١٨٠ هـ وعمره اثنتان وثلاثون.

العلوم التي برع فيها وآثاره

النووي الفقيه:

لم يكن النووي فقيهاً إلا لأنه يريد التقرب إلى الله بعلم ينفع فيه نفسه وينفع عباد الله.

والفقه عظيم القدر، جليل النفع، رفيع المنزلة، يحتمي به الصالحون من العلماء من مخالفة الله ورسوله ومن موقف يوم الحساب. وهو ذاته ذكر وعبادة، فعن أبي الدرداء[1]: «ما نحن لولا كلمات الفقهاء؟!». وعن عطاء[2] قال: «مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام، كيف تشتري وتبيع، وتصلي وتصوم، وتنكح وتطلق، وتحج وأشباه ذلك[3]».

وليس مفهوم الفقه في هذه النصوص هو التعصبَ المذهبي

---

(١) أبو الدرداء هو عويمر بن مالك بن قيس الصحابي الأنصاري الخزرجي، من الحكماء الفرسان القضاة، توفي بالشام سنة ٣٢ هـ.

(٢) هو عطاء بن أسلم بن صفوان: تابعي من أجلاء الفقهاء، كان مفتي مكة ومحدثهم، توفي سنة ١١٤ هـ.

(٣) هذه النصوص من المجموع (١/ ٣٥ ـ ٣٦).

وإنما هو الفهم والقدرة على استنباط الأحكام الفرعية من النصوص الشرعية: الكتاب والسنة الصحيحة، ثم القياس الجلي، ثم الإجماع الحقيقي، ومن لم يستطع بلوغ ذلك، وتبع مذهباً من مذاهب أهل السنة فليكن كما نقل النووي في المجموع: «قال الشيخ أبو عمرو[1]: فمن وجد من الشافعية حديثاً يخالف مذهبه نظر إن كملت آلات الاجتهاد فيه مطلقاً، أو في ذلك الباب أو المسألة، كان له الاستقلال بالعمل به، وإن لم يكن وشقَّ عليه مخالفة الحديث بعد أن بحث فلم يجد لمخالفته جواباً شافياً، فله العمل به إن كان عمل به إمام مستقل غير شافعي، ويكون هذا عذراً له في ترك مذهب إمامه هنا» يقول النووي بعد هذا: **«وهذا الذي قاله حسن متعين»**[2].

وخذ مثلاً من نقده لبعض المتعصبين، يقول رحمه الله في الشيرازي[3] شيخ الشيوخ في المذهب الشافعي: «اعلم أن صاحب المهذب أكثر من ذكر أبي ثور، لكنه لا ينصفه فيقول:

---

(١) هو أبو عمرو بن الصلاح، واسمه عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الكردي الشهرزوري، أحد أئمة المسلمين علماً وديناً، توفي سنة ٦٤٣ هـ.

(٢) المجموع ١/ ١٠٥.

(٣) المجموع ١/ ١١٥.

قال أبو ثور: كذا، وهو خطأ، والتزم هذه العبارة في أقواله، وربما كان قول أبي ثور أقوى دليلاً من المذهب في كثير من المسائل. وأفرط المصنف ـ أي الشيرازي ـ في استعماله هذه العبارة، حتى في عبد الله بن مسعود الصحابي رضي الله عنه، الذي محله من الفقه وأنواع العلم معروف، قلَّ من يساويه فيه من الصحابة فضلاً عن غيرهم، لا سيما الفرائض، فحكى عنه في باب الجد والأخوة مذهبه في المسألة المعروفة بمربعة ابن مسعود، ثم قال: وهذا خطأ. ولا يستعمل المصنف هذه العبارة غالباً في آحاد أصحابنا أصحاب الوجوه[1] الذين لا يقاربون أبا ثور، وربما كانت أوجههم ضعيفة بل واهية. وقد أجمع نَقَلَةُ العلم على جلالة أبي ثور وإمامته وبراعته في الحديث والفقه، وحسن مصنفاته فيهما مع الجلالة والاتقان».

وكثيراً ما أورد أقوال بعض المذاهب وفيهم مذهبه الشافعي فيقول: ولكن الحديث.. كذا واتباع الحديث أولى، مثال ذلك في ترجيح المرجوع من مذهبه قوله[2] في قضاء الصوم عن الميت: «وللشافعي في المسألة قولان مشهوران، أشهرهما لا يصام عنه ولا يصح عن ميت صوم أصلاً، والثاني يُستحب لوليِّه أن يصوم عنه ويصح صومه عنه ويبرأ به الميت. وهذا القول هو

(١) أي الذين لهم آراء في مسألة غير ما عليه المذهب.
(٢) شرح مسلم ٨/ ٢٥.

الصحيح المختار الذي نعتقده، وهو الذي صححه محققو أصحابنا الجامعون بين الفقه والحديث لهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة». وفي مسلم أحاديث في قضاء الصوم عن الميت، وهناك أمثلة كثيرة جداً وليس هنا موضع بسطها.

هذا وقد أخذ النووي رحمه الله الفقه الشافعي عن كبار علماء عصره، كما رأيت ذلك في شيوخه في الفقه، وبفترة وجيزة حفظ الفقه وأتقنه، وعرف قواعده وأصوله، وفهم مخبآته وألغازه وبرع في معرفة أدلته، حتى عرف بذلك بين العامة والخاصة ولم يمض وقت كبير حتى كان عَلَم عصره في حفظه للمذهب، وإتقانه لأقوال علمائه، وأعرفهم بعلم الخلاف، وأحقهم بأن يكون: محرر المذهب. انتشر في الآفاق ذكره، وتعلق الطلبة والعلماء بتآليفه فانتفعوا بها وما يزال الناس ينتفعون بكتبه ويؤثرونها، وهاك طرفاً مما قاله العلماء في فقهه:

يقول الأسنوي[١] في طبقاته[٢]: وهو ـ أي النووي ـ محرر المذهب، ومهذبه، ومنقحه، ومرتبه، سار في الآفاق ذكره، وعلا في العالم محله وقدره. ويقول ابن كثير[٣] عنه: شيخ

---

(١) هو عبد الرحيم بن الحسن بن علي الأسنوي الشافعي فقيه أصولي من علماء العربية، توفي سنة ٧٧٢ هـ.

(٢) ص ٤٧٦ من الجزء الثاني.

(٣) هو إسماعيل بن عمر بن كثير، حافظ مؤرخ، فقيه مفسر، توفي سنة ٧٧٤ هـ.

المذهب، وكبير الفقهاء في زمانه[1].

ويقول الذهبي: كان رأساً في معرفة المذهب.

ويقول قاضي صفد محمد بن عبد الرحمن العثماني في ترجمته من الطبقات الكبرى[2] له عن النووي: شيخ الإسلام، بركة الطائفة الشافعية، محيي المذهب ومنقحه، ومن استقر العمل بين الفقهاء فيه على ما يرجحه.

ويقول الشهاب أبو العباس بن الهائم[3] في مقدمة البحر العجاج شرح المنهاج: الإمام العلامة الحافظ، الفقيه النبيل، محرر المذهب، ومهذبه، وضابطه، ومرتبه.

ويقول تلميذه ابن العطار[4]: كان حافظاً للمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه، ومذاهب الصحابة والتابعين، واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم، وما اشتهر من ذلك جميعه وما هجر، سالكاً في كلها طريقة السلف.

وفي كلام الأدفوي[5] في البدر السافر[6]: أن الشيخ نوزع

---

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٨.

(٢) السخاوي (٦١ ـ ٦٢).

(٣) هو أحمد بن محمد بن عماد الدين، شهاب الدين بن الهائم، من كبار علماء الرياضيات، وحصل في الفقه، توفي سنة ٨١٥ هـ.

(٤) تحفة الطالبين مصور (٩ / ب).

(٥) وهو جعفر بن ثعلب بن جعفر الأدفوي، مؤرخ، له علم بالأدب والفقه والموسيقى، توفي سنة ٧٤٨ هـ.

(٦) من السخاوي (٣٦).

مرة في نقل عن الوسيط، فقال: ينازعونني في الوسيط، وقد طالعته أربعمائة مرة!!

وقد بلغ من شهرته في الفقه وتحقيقه في عصره وبعد عصره هو والإمام الرافعي من قبله إلى أن قال محمد بن علي بن عبد الواحد من علماء القرن الثامن منتقداً تقليد الناس لهذين الإمامين: «الناس اليوم رافعية لا شافعية ونووية لا نبوية»[1].

وكان ـ رحمه الله ـ مع سعة علمه، وقوة براهينه لا يرى الجدال ولا يحب أهله ويعرض عنهم، وكان يبتعد عن لغط ألفاظ الفقهاء وعن عياطهم[2] في البحث، وغاية ما عنده أن يبلغ ما يريد بكلام فيه تؤدة ووقار. قال الذهبي[3] في سير النبلاء: **«وكان من سعة علمه عديم النظير، لا يرى الجدال، ولا تعجبه المبالغة في البحث، ويتأذى ممن يجادل ويعرض عنه»**.

وقال في موضع آخر[4]: كان ـ أي النووي ـ لا يتعانى لغط

---

(١) الدرر الكامنة (٤/ ٧٣) والمراد من هذه العبارة: أن الناس لهم من الثقة بهذين الإمامين الجليلين، والأخذ بفتاويهما، بحيث اكتفيا بهما عن الرجوع إلى ما يقوله الشافعي، أو الرجوع إلى الدليل من السنة، وهذا إن جاز في العوام فلا ينبغي أن يتلبس به العلماء.

(٢) عند السخاوي: عن ألفاظ الفقهاء وغياظهم..

(٣) السخاوي «٣٦».

(٤) المرجع السابق.

الفقهاء، وعياطهم[1] في البحث بل يتكلم بتؤدة ووقار.

فرحمه الله كان كبيراً في علمه، كبيراً في نبله، كبيراً في أخلاقه وأدبه.

وهناك الكثير من شهادات العلماء في فقهه اجتزأنا منه بهذا القدر، وسيأتي في «ثناء العلماء عليه» ثناؤهم عليه في فقهه.

بقيت مسألة، وهي ترجيح قوله إذا اختلف مع الرافعي[2] الكبير أو ترجيح قول الرافعي: فمن الفقهاء في بعض الجهات من يرجح قول الرافعي لأنه فيما يظهر ألصق بقواعد المذهب، وكثير من الفقهاء الشافعية يرجحون قول النووي لأنه ألصق بصحيح السنة وأعلم بالحديث. يقول العلامة المؤرخ اليافعي الشافعي[3]: والذي أراه أنه كلما اعتضد فيه بحديث يصح الاحتجاج به فقوله ـ أي النووي ـ مقدَّم؛ لا سيما وقد صح عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال: (إذا صح الحديث فهو مذهبي). وكذلك إذا لم يعتضد بحديث لكن تكافأت

(١) في السخاوي: لفظ الفقهاء وغياظهم ويجوز أنه أراد ما أثبتناه وتقدم قريب من هذا التعبير.

(٢) هو عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، من كبار فقهاء الشافعية، توفي سنة ٦٠٣ هـ.

(٣) وهو عبدالله بن أسعد بن علي اليافعي، مؤرخ متصوف من علماء الشافعية في اليمن، صاحب كتاب مرآة الجنان، توفي سنة ٧٦٨ هـ.

الأدلة ـ يعني فيرجح قول النووي ـ لكونه موافقاً مؤيداً مباركاً مسدَّداً. وإن ترجحه الأدلة ـ يعني قول أحدهما ـ في أحد الطرفين، فالراجح من الحكم ما رجحه دليله، والله أعلم[1].

وقد يختلف قول النووي قليلاً في كتاب من كتبه عن كتاب، فالظاهر أن المرجح هو آخر أقواله، لأن القاعدة أن المتأخر ينسخ المتقدم.

النووي المحدث:

مما أجمع عليه علماء الشريعة أن أفضل علم بعد كتاب الله علم الحديث، بل إن ما في القرآن الكريم من أحكام لا يتبين كثير من موجزه وجوامع كلمه، وخصوصه وعمومه، وناسخه ومنسوخه إلا بحديث رسول الله، والله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[2]. فالحديث تبيان وتشريع وهو أعظم عدة بعد القرآن الكريم للفقيه وعالم الكلام والواعظ والمشتغل بالعربية، وما أطيل في ذلك فالشمس لا تبالي بمن يشير لوجودها وعظم نفعها.

وقد بذل المحدثون ـ منذ المئة الأولى ـ جهوداً مذهلة في تنقية الحديث صحيحه وحسنه من ضعيفه ومعتله وموضوعه،

---

(١) مرآة الجنان ٤/ ١٨٥.

(٢) النحل «٤٤».

واذكر إن شئت أن البخاري[1] أخرج صحيحه ـ وعدده أربعة آلاف حديث غير المكرر ـ من ركام من الأحاديث تقدر بست مائة ألف حديث، وكذلك مسلم[2] نحو ذلك، والإمام أحمد[3] استصفى من نحو سبعمائة وخمسين ألف حديث، ثلاثين ألفاً في مسنده ومع ذلك لم يخل مسنده من الضعيف.

وكلما جاءت فترة من الزمن جاء لها محدثون ووجدوا في الحديث شغلاً جديداً: استدراكاً أو شرحاً أو تصحيحاً. وفي فترة العصور الإسلامية الوسطى وجد أمثال ابن الصلاح والنووي والمِزي والذهبي[4]، وآخر الكبار الحافظ ابن حجر[5] شارح البخاري.

---

(١) هو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم أبو عبدالله البخاري حبر الإسلام صاحب الجامع الصحيح، توفي سنة ٢٥٦ هـ.

(٢) هو مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري، حافظ من أئمة المحدثين، توفي سنة ٢٦١ هـ.

(٣) هو أحمد بن محمد بن حنبل، إمام المذهب الحنبلي واحد الأئمة الأربعة، توفي سنة ٢٤١ هـ.

(٤) تقدمت تراجمهم إلا المزي فهو: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف جمال الدين بن الزكي الكلبي المزي، محدث الديار الشامية في عصره، توفي في دمشق، سنة ٧٤٢ هـ.

(٥) هو أحمد بن علي بن محمد العسقلاني شهاب الدين بن حجر، إمام في الحديث والتاريخ، توفي سنة ٨٥٢ هـ.

وامتاز النووي من بينهم بأنه فقيه الأمة ، وقلما اجتمع لعالم تبحر في الفقه واتقان لعلوم الحديث، يقول تلميذه ابن العطار[١] : سمع البخاري ومسلماً وسنن أبي داود[٢] والترمذي[٣]، وسمع النسائي[٤] بقراءته، وموطأ مالك[٥]، ومسند الشافعي[٦]، ومسند أحمد بن حنبل، والدارمي[٧] وأبي عوانة الأسفراييني[٨] وأبي يعلى الموصلي[٩]،

---

(١) تحفة الطالبين ٨ / أ، ب.

(٢) هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأزدي السجستاني إمام أهل الحديث في زمانه، توفي سنة ٢٧٥ هـ.

(٣) هو محمد بن عيسى بن سورة السلمي الترمذي، من كبار حفاظ الحديث وعلمائه، توفي سنة ٢٧٩ هـ.

(٤) هو أحمد بن علي بن شعيب النسائي، صاحب السنن، علامة في الحديث، توفي سنة ٣٠٣ هـ.

(٥) مالك بن أنس، إمام دار الهجرة، وشيخ الشيوخ في الحديث، وأحد أئمة المذاهب، توفي سنة ١٧٩ هـ.

(٦) هومحمد بن إدريس بن العباس الشافعي إمام المذهب،توفي سنة ٢٠٤هـ.

(٧) هو عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني، محدث هراة، له المسند، توفي سنة ٢٨٠ هـ.

(٨) هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري أبو عوانة،من أكابر حفاظ الحديث، له الصحيح المسند توفي سنة ٣١٦ هـ.

(٩) هو أحمد بين علي بن المثنى التميمي الموصلي أبو يعلى، محدث =

وسنن ابن ماجة[1]، والدارقطني[2]، والبيهقي[3]، وشرح السنة للبغوي[4]، ومعالم التنزيل له في التفسير، وكتاب الأنساب للزبير بن بكار[5]، والخطب النباتية، ورسالة القشيري[6]، وعمل اليوم والليلة لابن السني[7]، وكتاب آداب السامع والراوي للخطيب[8]، وأجزاء كثيرة غير ذلك. يقول ابن العطار: نقلت ذلك جميعه من خط الشيخ رحمه الله.

= الموصل، جاوز في السن المائة، وتوفي سنة ٣٠٧ هـ.

(١) هو محمد بن يزيد الربعي القزويني، أحد الأئمة في الحديث، توفي سنة ٢٧٣ هـ.

(٢) هو علي بن عمر بن أحمد أبو الحسن الدارقطني الشافعي، إمام عصره في الحديث وأول من صنف القراءات، توفي سنة ٣٨٥ هـ.

(٣) هو أحمد بن الحسين بن علي أبو بكر، من أئمة الحديث، وما أحد نصر المذهب الشافعي مثله توفي سنة ٤٥٨ هـ.

(٤) هو عبدالله بن محمد بن عبد العزيز أبو القاسم البغوي حافظ، عالم، توفي سنة ٣١٧ هـ.

(٥) الزبير بن بكار بن عبدالله القرشي، من أحفاد الزبير بن العوام، عالم بالأنساب وأخبار العرب، توفي سنة ٢٥٦ هـ.

(٦) هو عبدالكريم بن هوازن بن عبدالملك من بني قشير بن كعب، زين الإسلام شيخ خراسان في عصره زهداً وعلماً، توفي سنة ٤٦٥ هـ.

(٧) هو أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق بن إبراهيم، يعرف بابن السني، الحافظ الإمام الثقة، توفي سنة ٣٦٤ هـ.

(٨) هو أحمد بن علي بن ثابت البغدادي أبو بكر، أحد الحفاظ المؤرخين المقدمين، توفي سنة ٤٦٣ هـ.

وقد روى النووي أشهر هذه الكتب بالسند العالي إلى الأئمة المؤلفين.

وهذا إسناده إلى الإمام مسلم، يقول في مقدمة شرحه لمسلم: أخبرنا بجميع صحيح الإمام مسلم بن الحجاج: إبراهيم ابن أبي حفص عمر بن مضر الواسطي رحمه الله بجامع دمشق حماها الله وصانها وسائر بلاد الإسلام وأهله، قال: أخبرنا الإمام ذو الكنى أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح منصور بن عبد المنعم الفراوي، قال: أخبرنا أبو الحسين عبد الغافر الفارسي قال: أنا أبو أحمد محمد بن عيسى الجلودي، قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه، أنا الإمام أبو الحسين مسلم ابن الحجاج رحمه الله.

ويقول رحمه الله في إسناده إلى الكتب الأربعة بعد ما تقدم: وكذلك اتفقت لنا بهذا العدد رواية الكتب الأربعة بحمد الله، التي هي تمام الكتب الخمسة التي هي أصول الإسلام، أعني: صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود والترمذي والنسائي.

ويقول في مسندي الإمام أحمد بن حنبل وابن ماجه: وكذلك وقع لنا بهذا العدد مسند الإمامين أبوي عبدالله: أحمد بن حنبل ومحمد بن يزيد، أعني ابن ماجه.

ويقول في موطأ مالك: ووقع لنا أعلى من هذه

الكتب ـ وإن كانت عالية ـ موطأ الإمام أبي عبدالله مالك بن أنس، فبيننا وبينه ـ رحمه الله ـ سبعة، وهو شيخ الشيوخ المذكورين كلهم[١].

ويقول ابن العطار: ومنها ـ أي من مسموعاته ـ كما رأيته بخط الشيخ وهو عندي أتبرك برؤيته كل قليل: كتاب الأربعين للحاكم[٢] على الشيخ خالد النابلسي، وأجزاء من كتاب المستقصى في فضل المسجد الأقصى لأبي محمد القاسم بن علي ابن عساكر[٣] على التقي إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر في سنة ٦٦٦ بجامع دمشق.

ونذكر الآن بعض من شهد به محدثاً، يقول الذهبي[٤]: وهو ـ أي النووي ـ سيد هذه الطبقة، ويقول ابن العطار في أثناء شهادة له فيه: . . . حافظاً لحديث رسول الله ﷺ، عارفاً بأنواعه كلها من صحيحه وسقيمه وغريب ألفاظه وصحيح معانيه واستنباط فقهه.

---

(١) شرح مسلم المقدمة ١/٦.

(٢) هو محمد بن عبدالله بن حمدوية النيسابوري الشهير بالحاكم، من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، توفي سنة ٤٠٥ هـ.

(٣) من المحدثين والمؤرخين في عصره، وهو ابن صاحب كتاب تاريخ دمشق توفي سنة ٦٠٠ هـ.

(٤) التذكرة ٤/ ١٤٧٢.

ويقول الذهبي[1] أيضاً: مع ما هو عليه من المجاهدة بنفسه والعمل بدقائق الورع والمراقبة، وتصفية النفس من الشوائب، ومحقها من أغراضها، كان حافظاً للحديث وفنونه ورجاله وصحيحه وعليله.

ودونك ما يقوله النووي في أهم أنواع علوم الحديث، يقول[2]: «ومن أهم أنواع العلوم تحقيق معرفة الأحاديث النبويات أعني معرفة متونها، صحيحها وحسنها وضعيفها، متصلها ومرسلها ومنقطعها ومعضلها ومقلوبها، مشهورها وغريبها وعزيزها، متواترها وآحادها وأفرادها، معروفها وشاذها ومنكرها، ومعللها ومدرجها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومجملها ومبينها ومختلفها، وغير ذلك من أنواعها المعروفات.

ومعرفة علم الأسانيد أعني معرفة حال رجالها وصفاتهم المعتبرة، وضبط أسمائهم وأنسابهم ومواليدهم ووفياتهم وغير ذلك من الصفات، ومعرفة التدليس والمدلسين، وطرق الاعتبار والمتابعات، ومعرفة حكم اختلاف الرواة في الأسانيد والمتون والوصل والإرسال، والوقف والرفع والقطع والانقطاع وزيادة الثقات.

---

(١) التذكرة ٤/ ١٤٧٢.

(٢) مقدمة شرح مسلم ٣ ـ ٤.

ومعرفة الصحابة والتابعين وأتباعهم، وأتباع أتباعهم ومن بعدهم رضي الله عنهم وعن سائر المؤمنين والمؤمنات».

هذه هي علوم الحديث التي لا بد منها للمحدث المتقن، وما عرضها النووي إلا وهو يتقنها اتقان كبار المحدثين في عصره ودليل ذلك مبثوث في مؤلفاته الفقهية والحديثية، وفيما ألفه من علم مصطلح الحديث: كالإرشاد الذي اختصره من كتاب علوم الحديث لابن الصلاح، والتقريب الذي اختصره من الإرشاد، وشرح مقدمة صحيح مسلم في المصطلح.

ويقول ابن العطار[1]: وقرأ على الشيخ أبي البقاء خالد بن يوسف بن سعد النابلسي الحافظ، «الكمال في أسماء الرجال» للحافظ عبد الغني المقدسي، وعلق عليه حواشي، وضبط عنه أشياء حسنة.

قال السخاوي[2]: وكذا رأيته علَّق فوائد على الأنساب[3] لابن الأثير، ولازم ـ كما قال القاضي عبد القادر[4] في طبقات الحنفية ـ الإمام المحدث الكبير الضياء بن تمام الحنفي في سماع

(١) تحفة الطالبين ٨ / أ.
(٢) السخاوي «١٠».
(٣) المسمى باللباب في تهذيب الأنساب.
(٤) ولعله عبد القادر بن محمد بن أبي الكرم، فقيه حنفي سمع من ابن الصلاح، توفي سنة ٦٩٦ هـ.

الحديث وما يتعلق به، قال: وعليه تخرَّج وبه انتفع. وفي تحفة الطالبين: أنه أخذ علوم الحديث لابن الصلاح عن جماعة من أصحابه[1].

النووي وفقه الحديث:

أكثر المحدثين في كل عصر يهتمون بجمع الحديث ونقده، ومعرفة رجاله، ويتسابقون إلى السند العالي.

وكلما كان السند أقل رجالاً بشرط الاتصال حتى يبلغ النبي ﷺ يكون الحديث أثمن، لدنوه من الصحة بقربه من النبي ﷺ وهو موضع افتخار بين المحدثين، وكانوا يصرفون عمرهم في هذا السبيل. وكثيراً ما يسأل أحدهم عن فقه حديث فلا يحسن، ورحم الله أحمد بن حنبل، قال: (لولا الشافعي ما عرفنا فقه الحديث) مع أنه كان محدث الدنيا، ولذلك قلنا من قبل: قلما اجتمع في عالِم فقه وحديث.

وما كان النووي رحمه الله يحبس علمه في الحديث في نطاق هذه النوافل للمحدثين ، وإنما كان همه في الحديث معرفـةَ ما ذكره في مقدمة صحيح مسلم وقد تقدم، ثم الانصراف إلى فقهه . وله في فقه الحديث شيوخ ، منهم الشيخ المحقق أبـو إسحـاق إبـراهيـم بـن عيسـى المـرادي الأنـدلسـي

---

(١) التحفة لابن العطار ص ٨ / أ.

الشافعي[1] رحمه الله، شرح عليه مسلماً، ومعظم البخاري، وجملة مستكثرة من الجمع بين الصحيحين للحميدي[2].

من سمع منه الحديث:

يقول ابن العطار تلميذه[3]: وسمع منه خلق من العلماء والحفاظ والصدور والرؤساء.

ويقول الذهبي[4]: وحدّث عنه ابن أبي الفتح، والمِزي وابن العطار.

ويقول السبكي: روى عنه شيخنا المزي ـ قرأت عليه عنه جميع الأربعين التي له وشرح مشكلها ـ وأبو الحسن العطار[5]، وأخذ عنه المحدث أبو العباس أحمد بن فرح الأشبيلي، كان له ميعاد عليه يوم الثلاثاء والسبت، شرح في أحدهما البخاري وفي الآخر صحيح مسلم.

---

(١) قال فيه النووي: الفقيه، الإمام الحافظ المتقن، المحقق الضابط، الزاهد الورع... إلى أن قال: صحبته عشر سنين، توفي سنة ٦٦٨ هـ.

(٢) هو محمد بن فتوح بن عبدالله، محدث مؤرخ، كان ظاهري المذهب، توفي سنة ٤٨٨ هـ.

(٣) التحفة ٨ / أ.

(٤) التذكرة ٤/ ١٤٧١.

(٥) الطبقات الكبرى ٨/ ٣٧٩ هامش.

وقرأ عليه: الرشيد إسماعيل بن المعلم الحنفي في شرح معاني الآثار للطحاوي، وسمع منه: أبو عبدالله محمد بن أبي الفتح الحنبلي، وسمع عليه الأربعين بإشارتها، وحدث بها.

والمحدث الفاضل الأديب الكامل أبو الفضل يوسف بن محمد بن عبدالله المصري ثم الدمشقي ـ وكان قارىء دار الحديث الأشرفية ـ وآخرون.

وهناك كثيرون غيرهم نجد معظمهم في ترجمة النووي للسخاوي.

مذهبه في العقائد:

لا نعلم للنووي شيخاً مخصوصاً في علم التوحيد، وإن كان لا بد للعالم الشرعي من أن يكون متمكناً ومحيطاً بما كتب العلماء في العقائد، ويظن أنه قرأ هذا العلم على أحد شيوخه، وكتابه «شرح مسلم» فيه الكثير من العقائد على أصول أهل السنة، وهو سلفي العقيدة ويؤول أحياناً على طريقة المتأخرين.

صرَّح اليافعي والتاج السبكي[1] رحمهما الله: أنه أشعري[2].

وقال الذهبي في تاريخه: إن مذهبه في الصفات السمعية

---

(١) هو عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي تاج الدين قاضي القضاة، المؤرخ، صاحب الطبقات، توفي سنة ٧٧١ هـ.

(٢) السخاوي (٣٦).

السكوت، وإمرارها كما جاءت، وربما تأوَّل قليلاً في شرح مسلم[1].

ويقول السخاوي: والتأويل كثير في كلامه[2].

وله رحمه الله مؤلف في التوحيد، وهي رسالة سماها «المقاصد»[3].

النووي اللغوي:

لا يقوى أحد على فهم الكتاب والسنة والتفقه بهما واستنباط الأحكام منهما، ويستوعب عبارات أئمة الدين من المتقدمين بل المتأخرين، حتى يتقن العربية: نحوها وصرفها واشتقاقها، ومعاني مفرداتها، وهذا ما يراه النووي ويحث عليه، يقول رحمه الله في مقدمة كتابه تهذيب الأسماء واللغات:

«أما بعد: فإن لغة العرب لما كانت بالمحل الأعلى والمقام الأسنى وبها يعرف كتاب رب العالمين، وسنة خير الأولين والآخرين وأكرم السابقين واللاحقين، صلوات الله عليه وعلى سائر النبيين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، اجتهد أولو البصائر والأنفس الزاكيات، والهمم المهذبة العاليات في

---

(١) المرجع السابق.
(٢) المرجع السابق.
(٣) كما في الأعلام.

الاعتناء بها والتمكن من إتقانها، بحفظ أشعار العرب وخطبهم ونثرهم وغير ذلك من أمرهم. وكان هذا الاعتناء في زمن الصحابة رضي الله عنهم مع فصاحتهم نسباً وداراً، ومعرفتهم باللغة استظهاراً، لكن أرادوا الاستكثار من اللغة التي حالها ما ذكرنا ومحلها ما قدمنا، وكان ابن عباس وعائشة وغيرهما رضي الله عنهم يحفظون من الأشعار واللغات ما هو من المعروفات الشائعات.

وأما ضرب عمر بن الخطاب وابنه رضي الله عنهما أولادهما لتفريطهم في حفظ العربية، فمن المنقولات الواضحات الجلية. وأما المنقول عن التابعين ومن بعدهم في ذلك فهو أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يذكر. وأما ثناء إمامنا الشافعي رحمه الله وحثه على تعلم العربية في أول رسالته، فهو بمقتضى منصبه وعظم جلالته.

ولا حاجة إلى الإطالة في الحث عليها، فالعلماء مجمعون على الدعاء إليها، بل شرطوها في المفتي والإمام الأعظم والقاضي لصحة الولايات، واتفقوا على أن تعلمها من فروض الكفايات»[1].

وما أظن أحداً من علماء الدين في عصر النووي أتقن العربية إتقانه لها، فهو ـ فوق أنه نحوي وصرفي بارع ـ لغوي

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢ ـ ٣.

محقق كأحسن ما يكون اللغوي المحقق، واقرأ إن شئت مقدمة كتابه «تحرير ألفاظ التنبيه» يقول رحمه الله بعد كلام عن قيمة كتاب التنبيه[1]: «والنوع الثاني: بيان لغاته، وضبط ألفاظه وبيان ما ينكر مما لا ينكر، والفصيح من غيره، وقد استخرت الله الكريم الرؤوف الرحيم في جمع مختصر أذكر فيه ـ إن شاء الله تعالى ـ اللغات العربية والمعربة، والألفاظ المولدة، والمقصورة والممدودة، وما يجوز فيه المذكر والمؤنث، والمجموع والمفرد والمشتق، وعدد لغات اللفظة، وأسماء المسمى الواحد المترادفة وتعريف الكلمة، وبيان الألفاظ المشتركة ومعانيها، والفروق بينها كلفظة الإحصان، وما اختلف فيه أنه حقيقة أو مجاز كلفظة النكاح، وما يعرف مفرده، ويجهل جمعه وعكسه، وما له جمع، وما له جموع، وبيان جمل ما يتعلق بالهجاء، وما يكتب بالواو والياء والألف، وما قيل جوازه بوجهين أو بثلاثة كالربا. وأنبه فيه على جمل من مهمات قواعد التصريف المكررة، وأذكر فيه جملاً من الحدود الفقهية المهمة: كحد المثلى وحد الغصب ونحوهما، والفرق بين المتشابهات كالهبة والهدية وصدقة التطوع، وكالرشوة والهدية، وبيان ما قد يلحن فيه، وما أنكر على المصنف عنه جواب، وما لا جواب عنه، وما غيره أولى منه، وما هو صواب وتوهم جماعة أنه غلط، وما ينكر من جهة

---

(١) تحرير ألفاظ التنبيه مخطوط ورقة «١».

نظم الكلام وتداخله، والعام والخاص وعكسه، وبيان جمل مهمة ضبطناها عن نسخة المصنف وهي صواب، وفي كثير من النسخ خلافها، وبيان ما أنكر على الفقهاء وليس منكراً، وبيان جمل من صور المسائل المشكلة مما له تعلق بالألفاظ، وغير ذلك من النفائس المهمات، كما ستراها في مواضعها إن شاء الله تعالى واضحاً. وألتزم فيه المبالغة في الإيضاح مع الاختصار المعتدل، والضبط المحكم المهذب، وقد أضبط ما هو واضح، ولكن قد يخفى على بعض المبتدئين، ومتى ما ذكرت فيه لغتان أو لغات قدمت الأفصح ثم الذي يليه، إلا أن أنبه عليه، وما كان من لغاته ومعانيها غريباً أضيفه غالباً إلى ناقله. وهذا الكتاب وإن كان موضوعاً للتنبيه على ما في التنبيه فهو شرح لمعظم ألفاظ كتب المذهب وعلى الله اعتمادي».

وكتاب «تحرير التنبيه» شبيه بالكتاب اللغوي المتداول «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير»، من حيث أن كليهما شرحٌ للألفاظ المبهمة في كتاب للفقه الشافعي، فالأول: التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، والثاني: الشرح الكبير للرافعي شرح فيه كتاب «الوجيز» للإمام الغزالي ـ وسماه: فتح العزيز في شرح الوجيز ـ ولكن كتاب «تحرير التنبيه» موجز مع الاستيعاب للمسائل، وفيه مما تحدث عنه في المقدمة ما لا يوجد في «المصباح» ويمتاز المصباح بترتيبه مع حروف المعجم مع سعته نسبياً في المفردات.

وأما كتابه «تهذيب الأسماء واللغات» فهو أيضاً كتاب وضع لإيضاح أسماء ولغات في كتب فقهية كبيرة معتمدة في المذهب الشافعي، وهذه الكتب هي: «مختصر المزني»[1] و«المهذب والتنبيه» لأبي إسحاق الشيرازي «والوسيط والوجيز» للإمام الغزالي و «الروضة» للنووي.

يقول النووي: «فإن هذه الكتب الستة تجمع ما يحتاج إليه من اللغات، وأضم إلى ما فيها جملاً مما يحتاج إليه مما ليس فيها ليعم الانتفاع به إن شاء الله تعالى: اللغات العربية والعجمية والمعرَّبة والاصطلاحات الشرعية، والألفاظ الفقهية، وأضم إلى اللغات ما في هذه الكتب من أسماء الرجال والنساء والملائكة والجن وغيرهم[2]».

وهذان الكتابان: «تحرير التنبيه» و «تهذيب الأسماء واللغات» يدلان على تمكن الإمام بعلم اللغة تمكناً قل نظيره في نظرائه في عصره.

يقول ابن قاضي شهبة في كتابه «طبقات النحاة واللغويين»[3]:

---

(١) هو إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل أبو إبراهيم المزني، صاحب الإمام الشافعي، كان مجتهداً قوي الحجة، توفي سنة ٢٦٤.
(٢) تهذيب الأسماء واللغات «المقدمة».
(٣) مخطوط برقم «٥٢٩».

«...أبو زكريا النووي الفقيه، الحافظ اللغوي، شيخ الإسلام، صاحب التصانيف المشهورة، كان إماماً في اللغة والنحو. قرأ ذلك على الشيخ جمال الدين بن مالك، ونقل عنه في تصانيفه، وصنف تهذيب الأسماء واللغات، وتركه مسودة، وهو يدل على تبحره في علم اللغة، وكذلك كتابه التحرير على كتاب التنبيه، فذكرته[1] بسبب ذلك».

وقد مر معنا في أول أمره أنه كان يقرأ ـ في جملة ما يقرأ ـ كل يوم درساً في إصلاح المنطق لابن السكيِّت في اللغة، ودرساً في التصريف، ودرساً في اللُّمع لابن جني في النحو.

محاولة اشتغاله بالطب:

يجوز أن يكون النووي قد استجاب لترغيب إمامه الشافعي بتعلم الطب، وذلك بقوله فيه: « لا أعلم علماً ـ بعد الحلال والحرام ـ أنبلَ من الطب، إلا أن أهل الكتاب غلبونا عليه[2]» ولكن النووي الزاهد المتقي، لا يتفق مزاجه إلا مع علم يجعله وسيلة إلى النجاة يوم القيامة، كعلوم الدين ووسائلها، لذلك نفرت نفسه وشعر بظلمة في قلبه حين حاول أن يتعلم الطب، يقول النووي في ذلك[3]:

---

(١) أي ذكره في طبقات النحاة واللغويين.
(٢) كتاب الإمام الشافعي لمؤلف هذا الكتاب ص ٢٧٣.
(٣) السخاوي ٦ ـ ٧ والتذكرة ٤/ ١٤٧٠.

«وخطر لي الاشتغال بعلم الطب، فاشتريت القانون (لابن سينا) وعزمت على الاشتغال فيه، فأظلم عليَّ قلبي، وبقيت أياماً لا أقدر على الاشتغال بشيء، ففكرت في أمري: من أين دخل عليَّ الداخل! فألهمني الله أن اشتغالي بالطب سببه، فبعت في الحال الكتاب المذكور، وأخرجت من بيتي كل ما يتعلق بعلم الطب فاستنار قلبي ورجع إلي حالي، وعدت لما كنت عليه أولاً».

يقول السخاوي[1]: فإن قيل: كيف هذا مع ما نقل ـ كما روينا في مناقب الشافعي للبيهقي ـ من طريق الربيع بن سليمان، سمعت الشافعي يقول: العلم علمان: علم فقه للأديان وعلم طب للأبدان، ونحوه عن ابن عبد الحكم عن الشافعي، وزاد: وما سوى ذلك فبُلْغة مجلس؟ فالجواب أن الذي مدحه الشافعي رحمه الله هو الطب النبوي، أو المجرد عن أصول الفلاسفة الذي صرح صاحب القانون في أوله بابتناء الطب المورد في كتابه عليها، وأن الطبيب يتعلم ما يبني عليه من العلم الطبيعي ولذلك اعترى الشيخ رحمه الله بمجرد عزمه على الاشتغال في الكتاب المذكور ما أشار إليه، لما رزقه الله من نور البصيرة، وأبداه له بصلاح السريرة، خصوصاً وعنده من الطب المحمود ما يفوق الوصف. اهـ

---

(١) ترجمة النووي له (٧).

وليس معنى انصرافه عن تعلم الطب أنه لا يعلم منه شيئاً، بل الحق أنه يعلم الكثير من شؤون الطب المعروفة في عصره، وهاك أمثلة قليلة من معرفته:

يقول رحمه الله في تعليقه على قول النبي ﷺ: «لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء برىء بإذن الله»، يقول[1]: «فهذا فيه بيان واضح لأنه قد عُلم أن الأطباء يقولون: المرض هو خروج الجسم عن المجرى الطبيعي، والمداواة ردَّه إليه، وحفظ الصحة بقاؤه عليه، فحفظها يكون بإصلاح الأغذية وغيرها، ورده يكون بالموافق من الأدوية المضادة للمرض. وبقراط يقول: الأشياء تداوى بأضداها، ولكن قد يدق ويغمض حقيقة المرض، وحقيقة طبع الدواء، فيقل الثقة بالمضادة، ومن هنا يقع الخطأ من الطبيب فقط، فقد يظن العلة عن مادة حارة فيكون عن غير مادة أو عن مادة باردة، أو عن مادة حارة دون الحرارة التي ظنها فلا يحصل الشفاء. فكأنه ﷺ نبه بآخر كلامه على ما قد يعارض به أوله، فيقال: قلتَ: لكل داء دواء ونحن نجد كثيرين من المرضى يداوون فلا يبرؤون، فقال: إنما ذلك لفقد العلم بحقيقة المداواة لا لفقد الدواء، وهذا واضح والله أعلم».

وهذا الذي قاله النووي رحمه الله مستمداً من الحديث النبوي، صادق التطبيق في كل زمان ومكان.

---

(١) شرح مسلم للنووي ١٤/ ١٩٢ ــ ١٩٤.

ويقول أيضاً ـ رحمه الله ـ شارحاً للحديث في مسلم، وهو قوله عليه الصلاة والسلام:

«إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم، أو شربة من عسل، أو لذعة بنار».

يقول النووي: فهذا من بديع الطب عند أهله، لأن الأمراض الامتلائية دموية أو صفراوية أو سوداوية أو بلغمية، فإن كانت دموية فشفاؤها إخراج الدم، وإن كانت من الثلاثة الباقية فشفاؤها بالإسهال بالمسهل اللائق لكل منها، فكأنه نبه ﷺ بالعسل على المسهلات، وبالحجامة على إخراج الدم وبالفصد ووضع العلق وغيرها مما في معناها، وذكر الكي لأنه يستعمل عند عدم نفع الأدوية المشروبة ونحوها، فآخر الطب الكي.

ثم يقول معلقاً راداً على بعض الملحدين:

إن علم الطب من أكثر العلوم احتياجاً إلى التفصيل، حتى إن المريض يكون الشيء دواءه في ساعة، ثم يصير داء له في الساعة التي تليها، بعارض يعرض من غضب يحمي مزاجه، فيغير علاجه، أو هواء يتغير، أو غير ذلك مما لا تحصى كثرته، فإذا وجد الشفاء بشيء في حالة بالشخص لم يلزمه منه الشفاء به في سائر الأحوال وجميع الأشخاص، والأطباء مجمعون على أن المرض الواحد يختلف علاجه باختلاف السن والزمان والعادة والغذاء والتدبير المألوف وقوة الطباع.

ثم يقول: فثبت بما ذكرناه أن العسل جار على صناعة الطب، وأن المعترض عليه جاهل لها، ولسنا نقصد الاستظهار لتصديق الحديث بقول الأطباء، بل لو كذبوه كذبناهم وكفرناهم، فلو أوجدوا المشاهدة بصحة دعواهم تأولنا كلامه ﷺ حينئذ وخرجناه على ما يصح... الخ ما قال.

المدارس التي سكنها أو تولاها أو درس بها

قدمنا أول الكتاب: أنه قصد إلى شيخه أبي إسحاق المغربي شيخ المدرسة الرواحية ليبحث له عن بيت في مدرسة يأوي إليه، بإشارة من شيخه الأول الفركاح، فمنحه شيخه المغربي بيتاً في الرواحية، فاتخذه سكناً له حتى أدركته الوفاة، وقد حددنا موضع المدرسة أول الكتاب.

المدرسة الإقبالية:

هي - كما قال النعيمي - داخل باب الفرج، وباب الفراديس، شمالي الجامع والظاهرية الجوانية[1] يعني هي - بعرفنا اليوم - بزقاق السبع طوالع من غربيه في الجهة الشمالية[2].

وهي مدرسة كبيرة شهيرة للفقه الشافعي، ولم يبق لها من

(١) البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٩.
(٢) مسامرة الأطلال لبدران ٨١.

أثر إلا واجهتها، وتحولت إلى بيت للسكن، ودرس بها جماعة من العلماء الكبار، منهم: بدر الدين بن خلِّكان، ثم شمس الدين بن خلِّكان، وباشر النووي التدريس في الإقبالية نيابة عن الشمس ابن خلِّكان[١] إلى آخر سنة ٦٦٩ هـ[٢].

الفلكية والركنية:

مدرستان متجاورتان عفا عليهما الزمان، وهما داخل بابي الفرج والفراديس بحارة الافتريس والفلكية، غربي الركنية، وقد ناب بهما أيضاً الإمام النووي[٣].

دار الحديث الأشرفية:

أشهر دار في بلاد الشام لعلم الحديث، دار الحديث الأشرفية، وقد كانت داراً لصارم الدين قايماز بن عبدالله النجمي[٤]، واقف القيمازية[٥]، وله بها حمام، فاشترى ذلك

---

(١) هو أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان أبو العباس، المؤرخ الحجة، والأديب الماهر، والفقيه العالم، صاحب وفيات الأعيان، توفي سنة ٦٨١ هـ.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٧٩.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) الأمير صارم الدين قايماز، كان يتولى أسباب صلاح الدين في مخيمه وبيوته، كان مشهوراً بالخير والإنفاق، توفي سنة ٥٩٦ هـ.

(٥) هي مدرسة للحنفية جنوب دار الحديث.

الملك الأشرف[1] مظفر الدين، موسى بن العادل، وبناها دار حديث، وأخرب الحمام وبناه مسكناً للشيخ المدرس بها، وتم بناء ذلك في سنتين، وجعل شيخها تقي الدين بن الصلاح.

وذكر السبط[2]: في سنة ثلاثين وستمائة في ليلة النصف من شعبان فتحت دار الحديث الأشرفية، وأملى بها الشيخ تقي الدين بن الصلاح الحديث.

ووقف عليها الملك الأشرف الأوقاف، وجعل بها نعل النبي ﷺ. ومكانها معروف وهي في أول منعطف في سوق العصرونية على اليسار، بجوار باب القلعة الشرقي وغربي المدرسة العصرونية.

ومن شرط واقفها في الشيخ أنه إذا اجتمع مَنْ فيه الرواية ومن فيه الدراية، قُدِّم من فيه الرواية، وظاهر أن من اجتمع فيه الرواية والدراية أولى بمشيختها ممن فيه إحداهما. والمتعارف عليه ألا يلي مشيختها إلا عظيم وقته بالعلم وخصوصاً علمَ الحديث، ومن لقب بشيخ دار الحديث فقد نال في العلم أجلَّ الألقاب. وهاك بعض من وليها: فأولهم ـ كما قدمنا ـ الإمام

(١) هو موسى بن محمد العادل أبي بكر، من ملوك الدولة الأيوبية بالشام، توفي سنة ٦٣٥ هـ.

(٢) وهو يوسف بن قزغلي أبو المظفر سبط أبي الفرج بن الجوزي، مؤرخ واعظ مفسر، توفي سنة ٦٥٤ هـ.

المحدث الفقيه تقي الدين بن الصلاح، ولي مشيختها ثلاث عشرة سنة، ثم ولي بعده: الشيخ جمال الدين عبد الصمد بن محمد الأنصاري الخزرجي الدمشقي ابن الحرستاني إلى أن توفي سنة ٦٦٢ هـ.

ثم ولي بعده شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي إلى أن توفي سنة ٦٦٥ هـ. ثم وليها بعده الإمام النووي إلى أن توفي سنة ٦٧٦ هـ[١] ولنقف هنا وقفة قصيرة:

الظاهر أن النووي رحمه الله لم يطلبها، بل دفعها عنه، ولم يقبلها إلا بعد جهد، ويدل على ذلك ما كتبه في رسالة لابن النجار حين هدده هذا بإقالته منها قال: «أو ما علمتَ لو أنصفتَ كيف كان ابتداء أمرها، أو ما كنتَ حاضراً مشاهداً أخذي لها».

ويقول القطب اليونيني[٢]: ونشر بها ـ أي النووي ـ علماً جماً، وأفاد الطلبة. وقال:

والذي أظهره وقدمه على أقرانه، ومن هو أفقه منه: كثرة زهده في الدنيا، وعظم ديانته وورعه، وليس فيمن اشتغل عليه من يلتحق به.

---

(١) من الدارس ١/ ٢٠ ـ ٢١.
(٢) السخاوي ٢٩.

وقرىء[1] عليه البخاري ومسلم بدار الحديث الأشرفية سماعاً وبحثاً، وقرىء عليه الرسالة للقشيري، وصفة الصفوة، وكتاب الحجة على تارك المحجة لنصر المقدسي، بحثاً وسماعاً.

يقول ابن العطار[2]: وحضرت معظم ذلك، وعلقت عنه أشياء في ذلك وغيره، فرحمه الله ورضي عنه.

وقال التاج السبكي[3]: قال والدي: إنه ما دخلها ـ أي دار الحديث الأشرفية ـ أعلم ولا أحفظ من المزي، ولا أورع من النواوي وابن الصلاح.

وقال التاج السبكي: ودرس ـ أي النووي ـ بدار الحديث الأشرفية وغيرها ولم يتناول فلساً واحداً.

ونرجع إلى القول فيمن وليها بعد النواوي: وهو الشيخ زين الدين أبو محمد عبد الله بن مروان بن عبدالله الفارقي، وهو الذي عمر دار الحديث هذه بعد خرابها في فتنة قازان، وقد باشرها سبعاً وعشرين سنة إلى حين وفاته.

ثم وليها بعد الفارقي صدر الدين ابن الوكيل شيخ الشافعية

---

(١) تحفة الطالبين ٨ / ب.
(٢) نفس المرجع.
(٣) الدارس ٦/٣٦.

في زمانه إلى حين وفاته سنة ٧١٦ هـ.

وبعده باشر الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني مشيخة دار الحديث الأشرفية، ثم لم يستمر بها سوى خمسة عشر يوماً حتى انتزعها منه كمال الدين ابن الشريشي، وباشرها في الثامن من شهر رمضان سنة ٧١٦ هـ.

وبعده في سنة ٧١٨ هـ تولى مشيختها أبو الحجاج المزي، ولبث في ولايتها ثلاثاً وعشرين سنة.

وبعده قاضي القضاة تقي الدين أبو الحسن علي بن القاضي زين الدين السبكي الأنصاري الخزرجي[١].

وبعد هؤلاء كثيرون: منهم ابن كثير والتاج السبكي.

وممن أدركته ـ وحسبي مفخرة أن أدركه ـ ممن تولى أمر دار الحديث محدث زمانه: الحافظ الأكبر الشيخ محمد بن بدر الدين يوسف البيباني الشهير بالحسني، المتوفى سنة ١٣٥٤ هـ، وكان والده رحمه الله قد تولى بناءها بعد أن تهدمت، ولبث الشيخ فيها أكثر من خمسين سنة يتصدى لإقراء الوافدين عليه من طلاب العلم.

خلافه مع التاج الفزاري:

التاج الفزاري ـ وعرف بالفركاح ـ مفتي بلاد الشام، وعلم

---

(١) الدارس ٦/٣٦.

من أعلام القرن السابع، وهو من شيوخ الإمام النووي، أول شيخ له وهو أكبر منه بسبع سنين، وتقدم معنا في أول الكتاب في «بدء اشتغاله بطلب العلم».

ومن عادة النووي المبالغة في احترام شيوخه وتقديرهم، إلا إذا رآهم انحرفوا عن نصوص المذهب، أو عن صريح السنة، فإنه يؤثر صداقة ما يراه الحقَّ على صداقة كل الناس حتى شيوخه، وهذا سبب الوحشة بينهما، ودونك القصة:

عندما فتح الملك الظاهر الفتوحات المشهورة، وعم الناس الجواري، وتسرَّوا بهنَّ، سئل التاج الفزاري فرخص في ذلك، وصنف جزءاً في إباحة ذلك من غير تخميس، واستدل بأشياء منها قسم رسول الله ﷺ غنائم بدر، وأعطى منها من لم يشهدها، وربما فضل بعض حاضريها على بعض، ثم نقل بعد ذلك في الغنائم أحوالاً مختلفة، تقلب على حسب المصلحة. ثم ذكر غزوة حنين وقسم غنائمها، وأنه ﷺ أكثر لأهل مكة من قريش وغيرهم حتى إنه يعطي الرجل الواحد مائة ناقة، والآخر ألف شاة، ومعلوم أنه لم يحصل لكل حاضر في هذه الغزاة مثل هذه العدة من الإبل والشياه ولم يعط الأنصار شيئاً ـ وكانوا أعظم الكتيبة وجل العسكر وأهل النجدة ـ حتى عتبوا، وهذا حديث صحيح مخرج في جميع الأصول المعتمدة من كتب الحديث، وكان ﷺ أعدل الناس في قسمه، وأعدلهم في بيان حق،

وأحقهم في إزالة شبهة، فلما اقتصر على مدح الأنصار بما رزقهم الله من السابقة في الإسلام، وما خصهم به من محبته ﷺ إياهم، وسلوك فجهم دون فج غيرهم، ورجوعهم إلى منازلهم به عوضاً عما رجع به غيرهم من الأموال والأنعام، علم كل ذي نظر صحيح أنه عليه السلام فعل في هذه الغنائم ما اقتضاه الحال من المصالحة من عطاء وحرمان وزيادة ونقصان، ثم لم يعلم بعد هذا الحكم ناسخ ولا ناقض، بل فعل الأئمة بعده ما يؤكده. ثم قال: ولولا خشية الإطالة لتقصينا الآثار الواردة في قسم الغنائم من الأئمة الراشدين ومن بعدهم، حتى إن المتأمل المتبع الآثار لو أراد أن يبين أن غنيمة واحدة قسمت على جميع ما يقال في كتب الفقهاء من النفل والرضخ والسلب وكيفية إعطاء الفارس والراجل وتعميم كل حاضر، لم يكد يجد ذلك منقولاً من طريق معتمد. . . واستدل بأشياء كثيرة.

قال القطب اليونيني: فحصل للناس بقوله خير عظيم لأن الناس لم يزالوا يغنمون، ويستولدون الجواري ويبيعونهن، فيحكم الحاكم بصحة بيعهم وشرائهم وإجراء جميع ما يتعلق بهم على حكم الصحة، ولو فتحوا باب تخميس الغنائم لحرم وطء كل جارية تغنم قبل تخميسها، لأن نكاح الجارية المشتركة حرام، فيؤول ذلك إلى مفاسد كثيرة.

ولكن النووي رحمه الله لم يَرُق له ما كتبه شيخه التاج

الفزاري، فلما وقف على ذلك نقضه كلمة كلمة، وبالغ في الرد عليه، ونسبه إلى أنه خرَق الإجماع في ذلك، وأطلق لسانه وقلمه.

قال القطب اليونيني: ولا شك أن الذي قاله النووي هو مذهب الشافعي وغيره، إلا أنه لم يعمل به في عصر من الأعصار، ولا قيل إن غنيمة خُمِّست في زمن من الأزمان بعد الصحابة والتابعين، ولولا القول بصحة ذلك لكان الناس كلهم بسبب شرائهم الجواري، واستيلادهم إياهن في محرَّم. وسائر عمل الناس قاطبة على ما أفتى به التاج، ولم يعمل أحد بما أفتى به الشيخ ـ يعني النووي ـ.

قال اليونيني: وما كان ينبغي له أن يرد عليه هذا الرد لعلمه أن بعض العلماء ذهب إليه، وقال: وحكي لي أن الفتاوى كانت إذا جاءت إلى الشيخ وعليها خط التاج يمتنع من الكتابة فيها.

ويقول السخاوي: وذكر القطب اليونيني بعد ذلك كلاماً فيه بعض تحامل مع ما أسلفه من أنه كانت مقاصده جميلة.

وقال التقي ابن قاضي شهبة(١):

ولما قدم النووي من بلده أحضروه ليشتغل عليه ـ يعني

---

(١) السخاوي ٨. وابن قاضي شهبة: هو محمد بن أبي بكر بن أحمد بدر الدين الأسدي، ومؤرخ وفقيه الشام في عصره، توفي سنة ٨٧٤ هـ.

الفزاري ـ . . الخ إلى أن قال:

ثم إنه كانت بينهما وحشة كعادة النظراء. قال: وكان النووي أنقل للمذهب وأكثر محفوظاً منه.

ويرى الذهبي[1]: أنه كان ـ أي الفزاري ـ أفقه نفساً وأذكى قريحة، وأقوى مناظرة من الشيخ محيي الدين ـ أي النووي ـ بكثير، ولكن كان الشيخ محيي الدين أنقلَ للمذهب وأكثر محفوظاً منه، وقال: وكان بينه وبين النواوي وحشة كعادة النظراء.

أقول: وليس في قدرتي أن أدخل معترك الأبطال، ولكن الذي يظهر لي أن العلامة الفركاح الفزاري أراد أن يجتهد في مسألة عمَّ بلاؤها الناس، فاستخدم ملكته الفقهية وقدرته على انتزاع الأدلة، ثم أصدر فتواه التي أراحت الناس وطمأنتهم، فكسب في ذلك مودتهم وإكبارهم، ولكن النووي يرحمه الله لا يلقي بالاً لكل هذه المظاهر الفارغة، فأي أمر أو عمل إما حلال وإما حرام ولكل دليل، فانتشار أمر بين الناس لا يجعله حلالاً إذ كان في الأصل حراماً، وعند صراحة الأدلة لا يحتاج المرء أن يكون أفقه نفساً وأذكى قريحة وأقوى مناظرة على حد قول الذهبي، فالدليل القوي هو الفقه وهو الحجة عند المناظرة.

---

(١) الدارس ١/١٠٩.

ومع أن القطب اليونيني ـ وكان تلميذاً للشيخ النووي ـ اعترف أن الذي قاله النووي هو مذهب الشافعي وغيره، واعترف أن الصحابة والتابعين كان عملهم بما نقله النووي إذ قال اليونيني: ولا قيل أن غنيمة خُمِّست في زمن من الأزمان بعد الصحابة والتابعين، والمعنى أن الصحابة والتابعين كانوا يخمسون كل غنيمة.

مع اعترافه بذلك كان يتحامل عليه ويقول: ما كان ينبغي له أن يرد عليه هذا الرد لعلمه أن بعض العلماء ذهب إليه، لماذا يا سيدي؟! أليس الحق أحقَّ أن يتبع، ألم يرد الشافعي على شيخه الإمام مالك، ألم يناظر شيخه محمد بن الحسن ويلزمه الحجة!! وإذا كان يريد اليونيني أنه كان قاسياً في رده، فما أتصور الشيخ النووي يخرج عن حدود آداب البحث والمناظرة، لما عرف عنه من سمو الخلق والبراءة من العنف والكيد، بل اليونيني نفسه يقر أنه كانت مقاصده جميلة وأفعاله لله تعالى. ولكن الشيخ الفركاح هو الذي اتسم بعنف اللهجة، بل بتدنيها حين كان ينعت كتاب «الروضة» للنووي بأقبح الألفاظ، مع أن عمدة فتاوى العلماء والشافعية في عصره وما بعده على الروضة هذه.

وعلى كل حال فمن المؤكد أن نصوص الفقهاء عامة تؤيد ما ذهب إليه النووي، بل مالنا ولذلك والله تعالى يقول:

﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾[1].

لم يستثن ـ سبحانه وتعالى ـ الجواري من الغنيمة، بل قال: من شيء، وهي مبالغة في الاستقصاء، ولا عبرة بحجج الفركاح ولا بمن يقول بقوله، ولا بما يترتب على التحريم من قبل التخميس من مشاكل، ولا في عمل القرون المتطاولة.

---

(١) الآية (٤١) من سورة الأنفال.

الربّاني الزاهد

عبادته:

يرى النووي رحمه الله أن أعظم العبادة تعلم العلم الذي يعرف به الحلال من الحرام بإخلاص، وقد مرَّ في أول بحث علم النووي وفقهه بعض الأدلة على ذلك وبعض أقوال النووي. ويحضرني في ذلك ما أرويه بمعناه: أن بعض تلاميذ محمد بن الحسن ـ أحد صاحبي أبي حنيفة رحمهما الله تعالى ـ سألوه أن يؤلف لهم كتاباً في الزهد، فقال: لقد ألفت لكم كتاب البيوع، وكأنه يقول: إن الزهد الحقيقي اجتناب ما حرم الله واجتناب أكل أموال الناس بالباطل.

ومع هذا، كان للنووي اشتغال في العبادة. قال في البدر السافر[1]: وكان ـ أي النووي ـ كثير العبادة. وقال تلميذه ابن العطار[2]: كان كثير التلاوة كثير الذكر لله تعالى. وقال القطب اليونيني: إنه كان كثير التلاوة للقرآن والذكر، معرضاً عن الدنيا،

---

(١) ترجمة النووي ٣٦.

(٢) تحفة الطالبين ٢ / أ.

مقبلاً على الآخرة ، من حال ترعرعه[1]. وقال ابن العطار[2]: ذكر لي صاحبنا أبو عبدالله محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي الفاضل نفع الله به في حياة الشيخ رحمه الله قال:

كنت ليلة في أواخر الليل بجامع دمشق، والشيخ واقف يصلي إلى سارية في ظلمة وهو يردد قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ۝٢٤﴾ مراراً بحزن وخشوع، حتى حصل عندي من ذلك شيء الله أعلم به.

وفي البداية والنهاية لابن كثير[3]: «كان يصوم الدهر».

وقال اليافعي[4]: كان كثير السهر في العبادة والتلاوة والتصنيف.

زهده وورعه:

قال ابن العطار[5]: قال لي شيخنا محمد بن عبد القادر الأنصاري: لو أدرك القشيري صاحب الرسالة شيخكم ـ يعني النووي ـ وشيخه ـ يعني أبا إسحاق إبراهيم بن عثمان المغربي ـ لما قدّم عليهما في ذكره لمشايخها ـ يعني الرسالة ـ أحداً، لما

---

(١) ترجمة النووي للسخاوي (١٢).
(٢) تحفة الطالبين ٩ / ب.
(٣) ١٣/ ٢٧٩.
(٤) مرآة الجنان ٤/ ١٨٣.
(٥) تحفة الطالبين ٤ / ب.

جمع فيهما من العلم والعمل والزهد والورع، والنطق بالحكمة وغير ذلك.

ويقول الذهبي في العبر[1]:

وكان مع تبحره في العلم، وسعة معرفته بالحديث والفقه واللغة وغير ذلك، بما قد سارت به الركبان، رأساً في الزهد، قدوة في الورع.

وقال أيضاً في سير النبلاء[2]:

كان عديم الميرة والرفاهية والتنعم، مع التقوى والقناعة والورع الثخين، والمراقبة لله في السر والعلانية، وترك رعونات النفس من ثياب حسنة، ومأكل طيب، وتجمل في هيئة... الخ.

وذكر العلامة رشيد الدين إسماعيل بن المعلم الحنفي[3] قال: عذلته في عدم دخول الحمام، وتضييق عيشه في أكله ولباسه وجميع أحواله، وقلت له: أخشى عليك مرضاً يعطلك عن أشياء أفضل مما تقصده، قال: فقال لي: إن فلاناً صام وعَبَدَ الله تعالى حتى اخضرّ عظمه، قال: فعرفت أنه ليس له

---

(١) الجزء الخامس ٣١٢.

(٢) السخاوي ٣٩.

(٣) هو إسماعيل بن عثمان بن عبدالكريم أبو الفداء، شيخ الحنفية في وقته، توفي سنة ٧١٤ هـ.

غرض في المقام في دارنا ولا التفات لما نحن فيه[1].

وورعهُ رضي الله عنه ورع من يشهد يوم الحساب بعين يقينه وعظم إيمانه، أكثر مما لو كان يشهده بحاسة نظره، لذلك كان يردد في قيامه في الليل قوله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ بخشوع وخوف كما مر معنا في عبادته، ولذلك وصف الذهبي ورعه بأنه ورع ثخين، ويريد أنه ورع شديد قل من يستطيع أن يقوم به.

فمن ورعه أنه كان لا يأكل من فاكهة دمشق كما اتفق على ذلك من أرخ له[2]، يقول ابن العطار[3]: وسألته عن ذلك فقال: إنها كثيرة الأوقاف والأملاك لمن هو تحت الحجر شرعاً، ولا يجوز التصرف في ذلك إلا على وجه الغبطة والمصلحة، والغبطة لليتيم والمحجور عليه، والناس لا يفعلونها إلا على جزء من ألف جزء من الثمرة للمالك، فكيف تطيب نفسي.

ومن ورعه أنه كان لا يتناول من جهة ما مالاً أو طعاماً ولا يقبل من أحد شيئاً[4]، حتى ما يفرض له، وفي كلام الذهبي: أنه ترك جميع الجهات الدنيوية، فلم يكن يتناول من جهة من

(١) السخاوي ٣٩.
(٢) كابن كثير وابن العماد وابن العطار والذهبي والسخاوي.
(٣) تحفة الطالبين ٤ / ب.
(٤) الشذرات ٨/ ٣٩٧.

الجهات درهماً فرداً، وأنه ما أخذ للأشرفية فيما بلغني جامكية، بل اشترى بها كتباً ووقفها[1].

وقال ابن دقماق[2]: إنه كان يجمع جامكيته عند الناظر، وكلما صار له حق سنة، اشترى له به ملكاً، ويوقفه على دار الحديث، أو كتباً فيوقفها على خزائنها. ويظهر أن هذا أول أمره كان يتقاضى اليسير فيشتري الكتب أو العقار فيوقفه، ثم امتنع عن أخذ شيء البتة، وهذا يفسر هذا الاختلاف بالأخبار. وقال قاضي صفد العثماني[3]: إنه لم يأخذ معلوماً قط، قال: وباشر مشيخة دار الحديث لما تعين عليه. فلم يتناول شيئاً من معلومها. وقال غيرهم: إنه لم يتناول منها شيئاً إلا سنة أو سنتين، وفي العبر للذهبي[4]: وَلِيَ دار الحديث، وكان لا يتناول من معلومها شيئاً بل يقنع بالقليل مما يبعث به إليه أبوه وكان لا يأخذ من أحد شيئاً ولا يقبل إلا ممن تحقق دينه ومعرفته، ولا له به علاقة من إقراء وانتفاع به، قاصداً الخروج من حديث إهداء القوس[5] والجزاء في الدار الآخرة.

---

(١) السخاوي ٣٧.

(٢) هو إبراهيم بن محمد أيدمر بن دقماق القاهري، مؤرخ الديار المصرية، توفي سنة ٨٠٩ هـ.

(٣) السخاوي ٣٧.

(٤) ج ٥/ ٣١٣.

(٥) حديث القوس: روي عن جماعة من الصحابة، والحديث كما أخرجه =

وربما كان يرى نشر العلم متعيناً عليه، مع قناعة نفسه وصبرها، والأمور المتعينة لا يجوز الجزاء عليها في الدار الدنيا، بل جزاؤها في الدار الآخرة شرعاً، كالقرض الجارِّ إلى منفعة فإنها حرام باتفاق العلماء.

يقول ابن العطار: وكنت جالساً بين يديه قبل انتقاله بشهرين أو نحوهما، وإذا بفقير قد دخل عليه وقال: الشيخ فلان من بلاد صرخد يسلم عليك، وأرسل معي هذا الإبريق لك. فقبله الشيخ وأمرني بوضعه في بيت حوائجه، فتعجبت منه لقبوله. فشعر بتعجبي، فقال: أرسل إلي بعض الفقراء زربولاً، وهذا إبريق، فهذه آلة السفر[1].

وقال الذهبي[2]: وكان لا يقبل من أحد شيئاً إلا في النادر ممن لا يشتغل عليه: أهدى له فقير إبريقاً فقبله، وعزم عليه الشيخ برهان الدين الاسكندراني أن يفطر عنده، فقال: أحضر الطعام إلى هنا، ونفطر جملة، فأكل من ذلك، وكان لونين.

= البيهقي في سننه من طريق عطية بن قيس الكلابي قال: علَّم أُبَيّ بن كعب رضي الله عنه رجلا القرآن، فأتى اليمن، فأهدى له قوساً. فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال إن أخذتها فخذ بها قوساً من النار، والحديث ـ كما قال البيهقي ـ منقطع.

(١) تحفة الطابين ١٢ / أ.

(٢) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٣.

والغريب أنه مع هذا الزهد والورع، والاكتفاء بالأقل، كان يقرر جواز أكل لذيذ الأطعمة وأنه لا ينافي الزهد، وذلك بتعليقه على بعض الحديث في صحيح مسلم[1]: كان رسول الله ﷺ «يحب الحلواء والعسل» فقال النووي: وفيه جواز كل[2] لذيذ الأطعمة والطيبات من الرزق، وأن ذلك لا ينافي الزهد والمراقبة، لا سيما إذا حصل اتفاقاً. ولعل النووي لا يتحقق الحلال فيتورع.

رفقه بالناس في عرصات القيامة:

يقول ابن العطار تلميذه[3]: وقال لي جماعة من أقاربه وأصحابه بنوى: إنهم سألوه يوماً ألّا ينساهم في عرصات القيامة، فقال لهم: إن كان ثَمَّ جاه، والله لا دخلت الجنة وواحد ممن أعرفه ورائي، ولا أدخلها إلا بعدهم!! فرحمه الله ورضي عنه.

يقول ابن العطار:

لقد جمعت هذه الحكاية من الأدب مع الله عز وجل، ومن الكرم ما لا يخفى على متأمل فطن.

---

(١) شرح مسلم ١٠/ ٧٧.

(٢) الأصل: كل، ولعلها: أكل.

(٣) تحفة الطالبين ٤٢ / ب.

كرامات النووي:

الكرامات: جمع كرامة، وهي الأمر الخارق للعادة لا على وجه التحدي، وهي عند أهل السنة حق، ولا يكفر منكرها. ولا يجيز وقوعها المعتزلة جميعاً، ومن أهل السنة الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني وهو ـ كما يقول التاج السبكي[1] ـ من أساطين أهل السنة والجماعة، ولكن أبا إسحاق لا ينكر الكرامة مطلقاً، ولكنه يرى أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة، قال[2]: وكل ما جاز تقديره معجزة لنبي لا يجوز ظهور مثله كرامة لولي

وقال: وإنما بالِغُ الكرامات إجابة دعوة، أو موافاة ماء في بادية في غير موقع المياه، أو مضاهي ذلك، مما ينحط عن خرق العادة.

وليس معنى قبول الرأي بإمكان وجودها قبولَ كل ما يتناقله الوعاظ والقصاصون من كرامات، فكل ما يروى منها أو من غيرها خاضع لما خضع إليه الحديث النبوي من الصحة والضعف والوضع وأكثر ما يروى من ذلك منقطع أو معضل، هذا إذا سكتنا عن جرح الرواة أو تعديلهم.

---

(١) الطبقات الكبرى ٢/ ٣١٥.
(٢) المرجع السابق.

وبعد: فإن لم يكن النووي وأمثاله أولياء الله فمن يكون الولي!! والله يقول: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾[1] ولذلك لا يستغرب أن تكون له كرامات كثيرة، يقول الذهبي في سير النبلاء[2]: **كان يؤثر عنه كرامات وأحوال.**

وقال التقي محمد بن اللحسن اللخمي[3]: «إنه ظهرت له الكرامات الكثيرة من سماع الهاتف، ومن انفتاح الباب المقفل بالأقفال ورده كما كان، وانشقاق الحائط في الليل، وخروج شخص له منه، حسن الصورة، وكلامه معه في مصالح الدارين، واجتماعه بالأولياء والأصفياء ومكاشفته هو للواحد، بأحوال لا يعلمها إلا الله، ثم صاحبها، وإعلامه بموته وهو بدمشق. ومن قوة نفسه ملازمته لحيَّة عظيمة في بيته بالرواحية، ويراها كلَّ قليل تخرج إليه، ويضع لها لباباً تأكله، حتى إن بعضهم رآه في غفلة وهو يطعمها اللباب، فقال له يا سيدي: ما هذه؟ وخاف، فقال: هذه خلق من خلق الله لا يضر ولا ينفع، أسألك بالله أن تكتم ما

---

(١) يونس ٦٢ ـ ٦٣.

(٢) السخاوي ٣٤.

(٣) السخاوي ٣٤ ـ ٣٥، واللخمي هو: محمد بن الحسن بن عيسى اللخمي تقي الدين، عالم محدث، توفي سنة ٧٣٨ هـ.

رأيت ولا تحدث به أحداً. فرحمه الله، لقد كان من الدين بمكان الرأس من الجسد، ظهر له العلم فشمر إليه، ونظر إلى الخيرات فأفرغت عليه».

«إذا تكلم افتتح كلامه بالحمد لله والثناء عليه، وإذا ذكر النبي ﷺ رفع صوته بالصلاة عليه».

«وكان إذا ذكر الصالحين ذكرهم بتعظيم وتوقير واحترام، وسوَّدهم، وذكر مناقبهم وكراماتهم».

قلت: زاد اللخمي: واكتسب من أحوالهم. إهـ.

وهذه بعض كراماته مفصلة:

يقول ابن العطار[1]:

ذكر لي شيخنا العارف، القدوة المسلك، ولي الدين أبو الحسن علي، المقيم بجامع بيت لهيا خارج دمشق رحمه الله، قال: كنت مريضاً بمرض يسمى النقرس في رجليَّ، فعادني الشيخ محيي الدين قدس الله روحه، فلما جلس عندي شرع يتكلم في الصبر، قال: فكلما تكلم جعل الألم يذهب قليلاً قليلاً، فلم يزل يتكلم فيه حتى زال كأن لم يكن قط. قال: وكنت قبل ذلك لم أنم الليل كله من الألم، فعرفت أن زوال الألم من بركته رحمه الله.

---

(١) تحفة الطالبين ٩ ـ ١٠ / أ.

ومن كراماته ما حكاه ابن الوردي[1] أيضاً في ترجمة شيخه الشرف البارزي: مما حكاه لي في ذي القعدة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة: أنه رأى النووي في المنام، قال: فقلت له: ما تختار في صوم الدهر؟ فقال: فيه اثنا عشر قولاً للعلماء، قال:

فلما استيقظت وجدت الأمر كذلك، يعني بعد السعي، فإنني لم أر الأقوال مجموعة في كتاب واحد. وعده ابن الوردي من كرامات شيخه أيضاً.

ووجدت هذا المنام بخط شيخي في بعض أجزاء تذكرته، وعبارته: قال الشرف البارزي[2]: رأيت النووي في النوم، فسألته عن صوم الدهر، فقال: فيه اثنا عشر قولاً للعلماء، قال: فأقمت حولاً حتى اجتمعت لي. ولم أجدها مجموعة في كتاب وهي هذه:

صوم الدهر في حق من لم ينذر ولم يتضرر به، فيه أربعة أقوال: الاستحباب، وهو اختيار أكثر الشافعية، والكراهة وهو اختيار البغوي، والإباحة وهو نص الشافعي، والتحريم، وهو قول جماعة من السلف[3].

---

(١) السخاوي ٣٥ وابن الوردي هو عمر بن مظفر بن عمر أبو حفص زين الدين، شاعر أديب مؤرخ، توفي سنة ٧٤٩ هـ.

(٢) هو هبة الله بن عبد الرحيم بن إبراهيم أبو القاسم شرف الدين البارزي، من أكابر الفقهاء، توفي سنة ٧٣٨ هـ.

(٣) أقول: والحديث المتفق عليه، والمروي عن عبدالله بن عمرو قال: =

وفي حق من نذر ولم يتضرر به خمسة أقوال: الوجوب، وهو اختيار أكثر الشافعية، والأربعة المتقدمة للقائلين.

وفي حق من يتضرر به بأن تفوته السنن أو الاجتماع بالأهل ثلاثة أقوال: التحريم، والكراهة، والإباحة. انتهى ما قرأته بخط شيخنا.

ومنها ما نقله ابن العطار[1] أيضاً:

ذكر لي صاحبنا الشيخ أبو العباس أحمد بن الشيخ أبي عبدالله محمد بن الحسن بن سالم الشافعي - جعل الله في بقيته البركة - غير مرة، قال: ذكر لي الشيخ الصالح الصدوق المعمَّر أبو القاسم ابن عمير المزي - وكان من الأخيار - أنه رأى فيما يرى النائم بالمزة رايات كثيرة، قال: وسمعت نوبة تضرب، فتعجبت من ذلك، فقلت من هذا؟ فقيل لي الليلة قُطِّب[2] يحيي النواوي فاستيقظت من منامي، ولم أكن أعرف الشيخ، ولا سمعت به قبل ذلك، فدخل المدينة - يعني دمشق - في حاجة، قال: فذكرت ذلك لشخص، فقال: هو شيخ دار الحديث الأشرفية، وهو الآن جالس فيها لميعادها، فاستدللت عليها

= قال رسول الله ﷺ: «لا صام من صام الأبد».

(١) تحفة الطالبين ٤٧ / ب.

(٢) قطب: أي جعلوه قطباً، ومن معاني القطب: سيد القوم الذي يدور عليه أمرهم. والقطبية: وظيفة صوفية عليا لأكبر أولياء الوقت.

ودخلتها فوجدته جالساً فيها، وحوله جماعة، فوقع بصره علي، فنهض إلى جهتي، وترك الجماعة، ومشى إلى طرف إيوانها، ولم يتركني أكلمه، وقال: اكتم ما معك، ولا تحدث به أحداً، ثم رجع إلى موضعه، ولم يزد على ذلك ولم أكن رأيته قبلها، ولم أجتمع له بعدها!!.

ومن كراماته[1]: ما حكى الزين عمر بن الوردي في ترجمة الشمس ابن النقيب[2] من تاريخه أنه قال:

دخلت وأنا صبي على النووي رحمه الله ـ يعني في أيام اشتغاله عليه ـ فقال لي: أهلاً بقاضي القضاة، قال: فنظرت فلم أجد عنده أحداً غيري، فقال لي: اجلس يا مدرس الشامية. وهذا من جملة كشف الشيخ رحمه الله، فإنه وليهما معاً، وكانت حكاية ابن النقيب لذلك وهو بحلب قبل ولايته الشامية، وكان يظن أنه يلي قضاء الشام فما ولي إلا حمص ثم طرابلس ثم حلب ثم رجع إلى دمشق، فولي الشامية.

ومن غرائب ما وقع معه رؤيته إبليس في زي شيخ حسن الصورة. قال ابن العطار[3]:

---

(١) السخاوي ٣٥.

(٢) هو محمد بن أبي بكر بن إبراهيم شمس الدين بن النقيب دمشقي من قضاة الشافعية، توفي سنة ٧٤٥ هـ.

(٣) تحفة الطالبين ٥ / أ.

ذكر لي رحمه الله قال: كنت مريضاً بالمدرسة الرواحية، فبينا أنا في بعض الليالي في الصفة الشرقية منها، ووالدي وإخوتي وجماعة من أقاربي نائمون إلى جانبي، إذ نشطني الله وعافاني من ألمي، فاشتاقت نفسي إلى الذكر، فجعلت أسبح، فبينا أنا كذلك بين الجهر والإسرار إذا شيخ حسن الصورة جميل المنظر يتوضأ على حافة البركة، وقت نصف الليل أو قريب منه، فلما فرغ من وضوئه أتاني وقال لي: يا ولدي لا تذكر الله تعالى وتهوش على والدك وإخوتك وأهلك ومن في هذه المدرسة، فقلت: يا شيخ، من أنت؟ قال: أنا ناصح لك، ودعني أكون من كنت، فوقع في نفسي أنه إبليس، فقلت أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ورفعت صوتي بالتسبيح، فأعرض ومشى إلى ناحية باب المدرسة، فانتبه والدي والجماعة على صوتي، فقمت إلى باب المدرسة، فوجدته مقفلاً، وفتشتها فلم أجد فيها أحداً غير من كان فيها، فقال لي والدي: يا يحيى ما خبرك؟ فأخبرته الخبر فجعلوا يتعجبون، وقعدنا كلنا نسبح ونذكر.

وقال السخاوي[1] : وكذا اشتهر أن الخضر كان يجتمع بـــه.

أقول: وهذا ممكن إن قلنا إنه لم يزل حياً، وكثير من العلماء ـ وفيهم البخاري ـ يرون أنه مات لقوله تعالى: ﴿ وَمَا

---

(١) ترجمة النووي ٣٣.

جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ [(١)].

واستدل البخاري في الحديث الذي أخرجه وأخرجه مسلم أيضاً عن جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ أنه قال ذلك قبل موته بشهر: «ما من نفس منفوسة اليوم، تأتي عليها مائة سنة، وهي حية يومئذٍ».

هذا بعض ما روي عن النووي من كرامات وهناك كثير غيرها والله أعلم بما صح منها وما لم يصح، مع العلم أن أكثر رواة ما قصصناه وصفوا بالعلم والصلاح والتقوى والصدق.

شيخه في الطريق:

إن من صفات النووي حُبَّه للصالحين والإشادة بذكرهم ومجالستهم والانتفاع بسلوكهم، ولو كان أعلم منهم بكثير، ذلك أنه يدرك أن الانصراف للعلم وحده ربما أورث جفوة في القلب، وأورث عُجْباً وكِبْراً ومِراء، فلا بد للعالم حينئذٍ من أن يصقل هذا القلب بكثرة العبادة، والجلوس إلى الصالحين واستماع الرقائق منهم والانتفاع بحالهم قبل قالهم، وقديماً قال سفيان بن عيينة شيخ الشيوخ في الحديث: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة» وقال محمد بن يونس: «ما رأيت للقلب أنفع من ذكر الصالحين».

---

(١) الأنبياء ٣٤.

ويقول ابن العطار عن شيخه[1]: وكان رحمه الله إذا ذكر الصالحين ذكرهم بتعظيم وتوقير واحترام، وسوَّدهم وذكر مناقبهم وكراماتهم.

ولم يكن للنووي طريق من هذه الطرق الشائعة، وكثير منها لم يكن في زمانه، وطريقه في العبادة والذكر طريق المصطفى عليه الصلاة والسلام، لذلك ألف كتابه الأذكار، فالذكر الصحيح المأثور أقرب قبولاً ومثوبة عند الله. وإذا لم يكن له طريق فإن له شيخاً صالحاً مُسلِّكاً يقصد إليه وينتفع بمجالسته وتذكيره ويتعهد قلبه وعبادته، وشيخه هذا هو الشيخ ياسين المراكشي، الذي له الفضل الأول في اكتشافه يوم صدقت فراسته، فوصى به أباه ومعلمه، وما زال يتعهده حتى أتى به إلى دمشق بصحبة والده وقد قدمنا ذلك، والنووي لم ينس له هذا الفضل، فكان يخرج إليه، ويتأدب معه، ويرجو بركته، ويستشيره في أموره.

وقد وصف الذهبي في تاريخ الإسلام الشيخ ياسين بن عبدالله[2] ـ والأكثرون على أنه ابن يوسف ـ المراكشي بأنه: المقرىء الحجام، الأسود، الصالح، كان له دكان بظاهر باب الجابية، وكان صاحب كشف وكرامات.

---

(١) تحفة الطالبين ٩ / أ.

(٢) ترجمة النووي للسخاوي ١٠.

ويرى محمد بن عبد القادر الأنصاري القاضي: أنه يصلح أن يكون من رجال الرسالة، بل قدمه عليهم كما مر في «زهد النووي وورعه». وقد حج أكثر من عشرين مرة. وبلغ الثمانين، ووصفه اللخمي: بالعلم بالقراءات السبع.

يقول السخاوي: لكن لم يتبين عمن أخذها، وليس له ترجمة في كتب من ترجم للقراء، ولعله اشتغل قبل بالقرآن ثم غلب عليه التصوف، فذكره الناس بولايته وزهده، ولم يذكروه بعلمه وقراءته. ومن ترجم له ذَكَر أن النووي أخذ عنه الطريق، ولم يذكر أحد ما هو طريقه، فالسبكي يقول: إن شيخه في الطريق الشيخ ياسين المراكشي، ولعل له أذكاراً من السنة يجمع عليها مريديه. وكما قدمت لم يعرف للشيخ طرق غير ما ورد في السنة.

الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر

وصف الله تعالى المؤمنين الموحدين بأنهم خير أمة، ولم يختر لهم من صفات الخيرية إلا تميزهم بصفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، ولعله تعالى إنما قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن منفعته تجاوز صاحبها إلى غيره، وصفة الإيمان بالله تنفع صاحبها أولاً والله أعلم.

وجعل من علامة ولاية المؤمنين بعضهم لبعض أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. ولعن اليهود والكافرين بنص القرآن ـ ومن أبرز الصفات التي كانت سبباً للعنهم أنهم لا يتناهون عن المنكر ـ في قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

ومقياس زيادة إيمان المؤمن هو أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وحين تساهل المسلمون بهذا الأمر ضعف فيهم وازع الدين ومن ثَمَّ ضعفوا واستكانوا.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية على الناس جميعاً، فأي جماعة ارتُكب فيهم المنكر فلم ينهوا عنه فكلهم آثمون.

وقد كان السلف رحمهم الله لا يتركون هذا الأمر ولو نالهم بسببه الموت أو العذاب الشديد، ومثل ذلك الأئمة وأتباعهم، بل كان أكثر علماء كل العصور لا يضنون بالأمر بالمعروف، ولا يسكتون عن النهي عن المنكر.

وما علمنا في القرن السابع أحداً من علمائه بلغ ما بلغه النووي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو في ذلك نادر في كل قرن، يقول الذهبي: كان عديم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وقد أجمع المترجمون على أنه كان ـ رحمه الله ـ لا يبالي في أمره ونهيه لومة لائم، بل لا يبالي الإهانة والموت، ولا يكبر عنده أحد عن النصيحة حتى العلماء والأمراء والملوك والجبابرة، وله في ذلك قصص تذهل الألباب وسنذكر بعضها، عسى أن ينتفع بها هواة الوقوف بباب الأمراء ممن يزين لهم أو يُقر ما يفعلون، ولو كان الظلم الصريح، أو المنكر القبيح.

مواجهة الملوك وإنكاره عليهم:

يقول ابن العطار[1]: وكان ـ أي النووي ـ مواجهاً للملوك والجبابرة بالإنكار، لا يأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل، وتوصل إلى إبلاغها. ويقول الذهبي[2]: وكان يواجه الملوك والظَّلمة بالإنكار، ويكتب إليهم ويخوفهم بالله تعالى. ومن أشهر قضاياه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقوفه في وجه الملك الظاهر بيبرس البندقداري[3] في قضية الحوطة على الغوطة.

قال القطب اليونيني[4]: إنه ـ أي النووي ـ واقف الظاهر غير مرة بدار العدل بسبب الحوطة على بساتين دمشق وغير ذلك.

وقال العماد ابن كثير[5]: إنه قام على الظاهر في دار العدل في قضية الغوطة لما أرادوا وضع الأملاك على بساتينها، فرد

---

(١) تحفة الطالبين ١٣ / أ.

(٢) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٣.

(٣) وهو ركن الدين أبو الفتوح بيبرس البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي، صاحب مصر والشام، مات بدمشق في العشر الأخير من المحرم سنة ٦٧٦ هـ.

(٤) تاريخ النووي للسخاوي ٤٥.

(٥) المرجع السابق.

عليهم ذلك، ووقى الله شرها بعد أن غضب السلطان، وأراد البطش به، ثم بعد ذلك أحبه وعظَّمه، حتى كان يقول: **أنا أفزع منه**.

فما هي قضية الحوطة؟ يقول جعفر الأدفوي في البدر السافر: إن السلطان الظاهر بيبرس لما ورد دمشق بعد قتال التتار ونزوحهم عن البلاد، ولّى وكالة بيت المال شخصاً من الحنفية، فقال: إن هذه الأملاك التي بدمشق كان التتار قد استولوا عليها، فتملكوها على مقتضى مذهب أبي حنيفة رحمه الله، فوضع السلطان يده عليها، فقام جماعة من أهل العلم وكان الشيخ فيهم.

ويقول السخاوي: بل هو أعظمهم، قال: فكلم السلطان في ذلك كلاماً فيه غلظة، فظن السلطان أن له مناصب يعزله عنها، فقيل: ما له.

وهذه صورة من مواجهته للملك الظاهر:

فقد طلب الملك الظاهر أن توقع فُتـيا من قبل العلماء فوقعها كثير من فقهاء الشام، بعضهم خوفاً وبعضهم طمعاً، وامتنع خلق من العلماء، بل أفتوا بعدم الجواز فعُرضوا على السيف وقُتلوا، ثم طلب من النووي أن يوقع فماذا كان؟ دونك القصة كما وجدتها آخر كتاب ترجمة النووي للسخاوي بزيادة محمود حسن ربيع[1].

---

(١) السخاوي ٨٠.

لما خرج الملك الظاهر لقتال التتار بالشام طلب فتاوى العلماء بأنه يجوز أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو، فكتب له فقهاء الشام بذلك، وقتل خلقاً من العلماء كثيراً بسبب إفتائهم له بعدم الجواز، فقال: هل بقي أحد؟ فقالوا: نعم بقي الشيخ محيي الدين النووي، فطلبه فقال: اكتب خطك مع الفقهاء فامتنع وقال: لا، فقال: ما سبب امتناعك؟ فقال: أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقدار، وليس لك مال، ثم منَّ الله عليك وجعلك ملكاً، وسمعت أن عندك ألف مملوك كلهم عنده حياصة من ذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حق من الحلي، فإذا أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليكك بالبنود الصوف بدلاً عن الحياصات الذهب وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، ولم يبق في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض، أفتيتك بأخذ المال من الرعية، وإنما يستعان على الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار نبيه ﷺ.

فغضب السلطان من كلامه، وقال: اخرج من بلدي - يعني دمشق - ، فقال: السمعُ والطاعة، وخرج إلى نوى، فقيل للملك: ما سبب عدم قتلك له، فقال: كلما أردت قتله أرى على عاتقه سَبْعَين يريدان افتراسي فأمتنع من ذلك. أي إن خوفه منه كان بهذه المثابة، وكثيراً ما صرح أنه يخافه، وإنما هذه هيبة من لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما رأى النووي أن المواجهة لم تجد نفعاً عمَد إلى الكتابة إليه بأسلوب فيه ترغيب وترهيب، أسلوب الناصح الذي يخشى عليه عاقبة أمره، ويخشى ضياع حقوق الناس، فيكون بذلك مسؤولاً أمام الله إن قصر بذلك، فكتب إليه ووقع معه بعض العلماء ممن لا يهابون ـ في سبيل الله ـ أحداً إلا الله. وهاك ما قاله علاء الدين بن العطار تلميذه[1]:

ومما كتبه لما احتيط على أملاك دمشق حرسها الله، بعد إنكاره مواجهة للسلطان الظاهر وعدم إفادته وقبوله:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[3]. وقد أوجب الله على المكلفين نصيحة السلطان أعز الله أنصاره، ونصيحة عامة المسلمين، ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدين النصيحة: لله ولكتابه ورسوله، وأئمة المسلمين وعامتهم» ومن نصيحة السلطان ـ وفقه الله لطاعته، وتولاه بكرامته ـ أن يُنهى إليه الأحكام إذا جرت على

---

(١) تحفة الطالبين ورقة ١٦ ـ ١٧.

(٢) الذاريات ٥٥.

(٣) المائدة ٢.

خلاف قواعد الإسلام، وأوجب الله تعالى الشفقة على الرعية والاهتمام بالضَّعفة وإزالة الضرر عنهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، وفي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «انما تنصرون وترزقون بضعفائكم» وقال ﷺ: «من كشف عن مسلم كُربة من كُرب الدنيا كشف الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»، وقال ﷺ: «اللهم من ولِّي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به ومن شق عليهم فاشقق عليه» وقال ﷺ: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته» وقال ﷺ: «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا». وقد أنعم الله تعالى علينا وعلى سائر المسلمين بالسلطان ـ أعز الله أنصاره ـ فقد أقامه الله لنصرة الدين، والذب عن المسلمين، وأذل له الاعداء من جميع الطوائف، وفتح عليه الفتوحات المشهورة في المدة اليسيرة، وأوقع الرعب منه في قلوب أعداء الدين، وسائر المارقين ومهد له البلاد والعباد، وقمع بسببه أهل الزيغ والفساد، وأمده بالإعانة واللطف والسعادة، فللّه الحمد على هذه النعم المتظاهرة والخيرات المتكاثرة، ونسأل الله الكريم دوامها له وللمسلمين، وزيادتها في خير وعافية آمين.

---

(١) الحجر ٨٨.

وقد أوجب الله شكر نعمه، ووعد الزيادة للشاكرين، فقال تعالى: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1]. وقد لحق المسلمين بسبب هذه الحوطة على أملاكهم أنواع من الضرر، لا يمكن التعبير عنها، وطُلب منهم إثبات لا يلزمهم، فهذه الحوطة لا تحل عند أحد من علماء المسلمين، بل من في يده شيء فهو ملكه، لا يحل الإعتراض عليه، ولا يكلف بإثباته.

وقد اشتهر من سيرة السلطان أنه يحب العمل بالشرع، ويوصي نوابه به، فهو أولى من عمل به. والمسؤول إطلاق الناس من هذه الحوطة والإفراج عن جميعهم، فأطلِقْهم أطلقك الله من كل مكروه، فهم ضعَفَة، وفيهم الأيتام والأرامل والمساكين والضعفة والصالحون، وبهم نُنصَر ونُغاث ونُرزق، وهم سكان الشام المبارك جيران الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وسكان ديارهم، فلهم حرمات من جهات. ولو رأى السلطان ما يلحق الناس من الشدائد لاشتد حزنه عليهم، وأطلقهم في الحال ولم يؤخرهم، ولكن لا تُنهى الأمور إليه على وجهها.

فبالله أغثِ المسلمين يُغثْك الله، وارفق بهم يرفق الله بك، وعجل لهم الأفراح قبل وقوع الأمطار وتلف غلاتهم، فإن أكثرهم ورثوا هذه الأملاك من أسلافهم، ولا يمكنهم تحصيل

---

(١) إبراهيم ٧.

كتب شراء وقد نهبت كتبهم. وإذا رفق السلطان بهم حصل له دعاء رسول الله ﷺ لمن رفق بأمته، ونصره على أعدائه، فقد قال الله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[1] ويتوفر له من رعيته الدعوات، وتظهر في مملكته البركات، ويبارك له في جميع ما يقصده من الخيرات، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «من سنَّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» فنسأل الله الكريم أن يوفق السلطان للسنن الحسنة التي يُذكر بها إلى يوم القيامة، ويحميه من السنن السيئة. فهذه نصيحتنا الواجبة علينا للسلطان، ونرجو من فضل الله تعالى أن يلهمه الله فيها القبول، والسلام عليكم ورحمة الله، الحمد لله رب العالمين، وصلواته وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه».

● وعلم النووي رحمه الله أن بعض من زينوا للسلطان سلب الغوطة من أصحابها الفلاحين تهدده وأوعده بأن يخلعه من مشيخة دار الحديث، فكتب النووي إليه.

يقول ابن العطار[2]:

وكان من قصة ابن النجار أنه سعى في إحداث أمور على المسلمين باطلة، فقام الشيخ ـ قدس الله روحه ـ مع جماعة من

---

(١) سورة محمد ٧.

(٢) تحفة الطالبين ٤٥ ـ ٤٧.

علماء المسلمين، فأزالوها بإذن الله تعالى، ونصر[1] الله الحق وأهله فغضب لذلك لكراهيته مصلحة المسلمين، ونصيحة الدين، وبعث إلى الشيخ يهدده، ويقول: أنت الذي تُحزِّب العلماء على هذا.

فكتب إليه الشيخ ـ قدس الله روحه ـ كتاباً هذه صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، من يحيى النووي:

اعلم أيها المقصر في التأهب لمعاده، التارك مصلحة نفسه في تهيئة جهازه[2] له وزاده، أني كنت لا أعلم كراهتك لنصرة الدين ونصيحة السلطان والمسلمين، حملاً مني لك على ما هو شأن المؤمنين من إحسان الظن بجميع الموحدين، وربما كنت أسمع في بعض الأحيان من يذكرك بغش المسلمين، فأنكر عليه بلساني وبقلبي لأنها غيبة لا أعلم صحتها. ولم أزل على هذا الحال إلى هذه الأيام، فجرى ما جرى من قول قائل للسلطان ـ وفقه الله الكريم للخيرات ـ : إن هذه البساتين يحل انتزاعها من أهلها عند بعض العلماء، وهذا من الافتراء الصريح والكذب القبيح، فوجب عليَّ وعلى جميع من علم هذا من العلماء أن يبين بطلان هذه المقالة، ودحض هذه الشناعة، وأنها خلاف

---

(١) في مصورة التحفة: ونظر لله الحق وأهله.

(٢) في السخاوي ٥٠: جهاده.

إجماع المسلمين وأنها لا يقول بها أحد من أئمة الدين، وأن ينهوا ذلك إلى سلطان المسلمين، فإنه يجب على الناس نصيحته لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «الدين النصيحة: لله ولكتابه ولرسوله وأئمة المسلمين وعامتهم». وإمام المسلمين في هذا العصر هو السلطان وفقه الله تعالى لطاعته وتولاه بكرامته، وقد شاع بين الخاص والعام أن السلطان كثير الاعتناء بالشرع، ومحافظ[1] على العمل به، وأنه بنى المدارس لطوائف العلماء ورتب القضاة من المذاهب الأربعة، وأمر بالجلوس في دار العدل لإقامة الشرع، وغير ذلك مما هو معروف من اعتناء السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ بالشرع، وأنه إذا طلب طالب منه العمل بالشرع أمر بذلك ولم يخالفه، فلما افترى هذا القائل في أمر البساتين ما افتراه، ودلَّس على السلطان، وأظهر أن انتزاعها جائز عند بعض العلماء، وغش السلطان في ذلك، وبلغ ذلك علماء البلد، وجب عليهم نصيحة السلطان، وتبيين الأمر له على وجهه، وأن هذا خلاف إجماع المسلمين، فإنه يجب عليهم نصيحة الدين والسلطان، وعامة المسلمين، فوفقهم الله تعالى للاتفاق على كتب كتاب يتضمن ما ذكرته على جهة النصيحة للدين والسلطان والمسلمين، ولم يذكروا فيه أحداً بعينه، بل

(١) السخاوي ٥٠: ويحافظ.

قالوا: من زعم جواز انتزاعها فقد كذب، وكتب علماء المذاهب الأربعة خطوطهم بذلك، لما يجب عليهم من النصيحة المذكورة، واتفقوا على تبليغها ولي الأمر ـ أدام الله نعمه عليه ـ لينصحوه، ويبينوا حكم الشرع.

ثم بلَّغني جماعات متكاثرات في أوقات مختلفات، حصل لي العلم بقولهم أنك كرهت سعيهم في ذلك، وشرعت في ذم فاعل ذلك، وأسندت معظم ذلك كله لي ـ ويا حبذا ذلك من صنيع ـ.

وبلَّغني عنك هؤلاء الجماعات: أنك قلت: قولوا ليحيى، هذا الذي سعى في هذا فينكف عنه، وإلا أخذت منه دار الحديث. وبلَّغني عنك هؤلاء الجماعات: أنك حلفت مرات بالطلاق الثلاث أنك ما تكلمت في انتزاع هذه البساتين، وإنك تشتهي إطلاقها.

فيا ظالم نفسه، أما تستحي من هذا الكلام المتناقض، فكيف يصح الجمع بين شهوتك إطلاقها وأنك لم تتكلم فيها، وبين كراهتك السعي في إطلاقها ونصيحة السلطان والمسلمين.

ويا ظالم نفسه، هل تعرض لك أحد بمكروه أو تكلم فيك بغيبتك؟ وإنما قال العلماء: من قال هذا للسلطان فقد كذب ودلَّس عليه وغشه ولم ينصحه، فإن السلطان ما يفعل هذا إلا لاعتقاده أنه حلال عند بعض العلماء، فبينوا أنه حرام عند

جميعهم. وأما أنت فقد قلت إنك لم تتكلم فيها، وحلفت على هذا بالطلاق الثلاث، فأي ضرر عليك في إبطال قول كاذب على الشرع، غاش مدلس على السلطان؟ قد قلت: إنه غيرك، وكيف تكره السعي على شيء قد أجمع الناس على استحسانه، بل هو واجب على من قدر عليه، وأنا بحمد الله من القادرين عليه بالطريق الذي سلكت، وأما نجاحه فهو إلى الله تعالى مقلب القلوب والأبصار.

ثم إني أعجب غاية العجب من اتخاذك إياي خصماً، ويا حبذا من اتخاذ، فإني بحمد الله تعالى أحب في الله تعالى وأبغض فيه، فأحب من أطاعه وأبغض من خالفه، وإذا أخبرت عن نفسك بكراهتك السعي في مصلحة المسلمين ونصيحة السلطان، فقد دخلت في جملة المخالفين، وصرت ممن نبغضه لله رب العالمين، فإن ذلك من الإيمان كما جاءت به الآثار الصحيحة المنقولة بأسانيد الأئمة الأخيار.

ارضَ لمن غاب عنك غيبتَه ... فذاك ذنب عقابه فيه[1]

ويا ظالم نفسه، أنا ما خاصمتك أو كلمتك أو ذكرتك، أو بيني وبينك مخاصمة أو منازعة أو معاملة في شيء، فما بالك تكره فعل خير يسّرني الله الكريم له ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ

(١) ورد هذا البيت في الأصلين كأنه كلام مقتبس ليس فيه سمة الشعر وبدل فيه: منه.

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾[1].

بل أنت لسوء نظرك لنفسك تنادي على نفسك، وتشهد الشهود بكراهة هذه النصيحة التي هي مصرحة بأنك أنت الذي تكلمت في هذه البساتين، وأن الطلاق واقع عليك، وما أبعد أن تكون شبيهاً بمن قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

ويا عدو نفسه، أتراني أكره معاداة من سلك طريقتك هذه، بل والله أحبها وأوثرها، وأفعلها بحمد الله تعالى، فإن الحب في الله والبغض فيه واجب علي وعليك وعلى جميع المكلفين، ولست أدري أي غرض لك في حرصك على الإنكار على الساعين في إعظام حرمات الدين، ونصيحة السلطان والمسلمين.

فيا ظالم نفسه، انته عن هذا، وارجع عن طريقة المباهتين المعاندين. وأعجب من هذا تكرير الإرسال إليَّ بزعمك الفاسد كالمتوعد: إن لم ينكفّ أخذت منه دار الحديث. فيا ظالم نفسه وجاهل الخير وتاركه، أطلعت على قلبي أني متهافت عليها، أو علمت أني منحصر فيها، أو تحققت أني معتمد عليها مستند إليها، أو عرفت أني أعتقد انحصار رزقي فيها، أو ما علمت لو أنصفت كيف كان ابتداء أمرها، أو ما كنت حاضراً مشاهداً أخذي لها، ولو فرض تهافتي عليها أكنت أوثرها على مصلحة عامة

---

(١) البروج ٨.

للمسلمين مشتملة على نصيحة لله وكتابه ورسوله ﷺ والسلطان وعامة المسلمين؟!.

هذا لم أفعله ولا أفعله إن شاء الله تعالى، وكيف تتوهم أني أترك نصيحة الله ورسوله وسلطان المسلمين وعامتهم مخافة من خيالاتك؟ إن هذه لغباوة منك عظيمة، ويا عجباً منك كيف تقول هذا؟ أأنت رب العالمين بيدك خزائن السموات والأرضين، وعليك رزقي، ورزق الخلائق أجمعين؟!.

أم أنت سلطان الوقت تحكم في الرعية بما تريد، فلو كنت عاقلاً ما تهجمت على التفوه بهذا الذي لا ينبغي أن يقوله إلا رب العالمين أو سلطان الوقت، مع أن سلطان الوقت منزه عن قول الباطل، مرتفع المحل عن فعل ما ذكرت يا ظالم. فإن كنت تقول هذا استقلالاً منك فقد افتت عليه، واجترأت على أمر عظيم ونسبته إلى الظلم عدوانا، وإن كنت تقوله عنه فقد كذبت عليه، فإنه بحمد الله حسن الاعتقاد في الشرع، وذلك من نعم الله تعالى عليه، والسلطان بحمد الله وفضله أكثر اعتقاداً في الشرع من غيره ومعظِّم حرماته، وليس هو ممن يقابل ناصحه بهذيانات الجاهلين، وترهات المخالفين، بل يقبل نصائحهم كما أمره الله تعالى.

واعلم أيها الظالم نفسه أني ـ والله الذي لا إله إلا هو ـ لا أترك شيئاً أقرر عليه من السعي في مناصحة الدين والسلطان في

هذه القضية، وإن رغمت أنوف الكارهين، وإن كره ذلك أعداء المسلمين، وفِرق حزب المجادلين، وسترى ما أتكلم به إن شاء الله تعالى عند هذا السلطان وفقه الله تعالى لطاعته وتولاه الله ببركاته في هذه القضية؛ غيرة على الشرع، وإعظاماً لحرمات الله تعالى، وإقامة للدين، ونصيحة للسلطان وعامة المسلمين.

ويا ظالم نفسه، أجلب بخيلك ورجلك إن قدرت، واستعن بأهل المشرقين، وما بين الخافقين، فإني بحمد الله تعالى في كفاية تامة، وأرجو من فضل الله تعالى أنك لا تقوى لمنابذة أقل الناس مرتبة، وأنا بحمد الله تعالى ممن يود القتل في طاعته تعالى، أتقوى يا ضعيف الحيل لمنابذتي؟ أبَلَغَك يا هذا أني لا أؤمن بالقدر؟! أو بلغك أني أعتقد أن الآجال تنقص، وأن الأرزاق تتغير؟ أما[1] تفكر في نفسك في قبيح ما أتيته من الفعال، وسوء ما نطقت به من المقال.

أيا ظالم نفسه، من طلب رِضىٰ الله تعالى ترده خيالاتك وتمويهاتك وأباطيلك وترهاتك؟!.

وبعد هذا كله أنا أرجو من فضل الله أن يوفق السلطان ـ أدام الله نعمه عليه ـ لإطلاق هذه البساتين، وأن يفعل فيها ما تقر به أعين المؤمنين، ويرغم به أنف المخالفين، فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ والسلطان بحمد الله تعالى

---

(١) في تحفة الطالبين المصورة: أم.

يفعل الخيرات، فما يترك هذه القضية تفوته.

واعلم أنك عندي بحمد الله تعالى أقل ممن أهتم بشأنك[1] أو ألتفت إلى خيالاتك وبطلانك، ولكني أردت أن أعرفك بعض أمري لتدخل نفسك في منابذة المسلمين بأسرهم، ومنابذة سلطانهم ـ وفقه الله تعالى ـ على بصيرة منك، وترتفع عنك جهالة بعض الأمر ليكون دخولك بعد ذلك معاندة لا عذر لك فيها.

ويا ظالم نفسه، أتتوهم أنه يخفى علي وعلى من سلك طريق نصائح المسلمين وولاة الأمر وحماة الدين، أن نعتقد[2] صدق قول الله تعالى: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[4] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[5] وقوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[7] وقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح:

---

(١) هكذا في الأصل وترجمة السخاوي ولعلها بشأنه وخيالاته أو لعل بدل ممن «مما» ليحسن توجيه الكلام.

(٢) في الأصل «أنا لا نعتقد» وفيه إشكال من حيث المعنى.

(٣) الأعراف ١٢٨.

(٤) فاطر ٤٣.

(٥) العنكبوت ٦٩.

(٦) سورة محمد ٧.

(٧) الروم ٤٧.

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم خذلان من خذلهم» والمراد بهذه الطائفة أهل العلم، كذا قاله أحمد بن حنبل رضي الله عنه وغيره من أهل العلم والفهم، وقوله ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» هذا فيمن كان في واحد من الناس فكيف الظن بمن هو في عون المسلمين أجمعين؟! مع إعظام حرمات الشرع ونصيحة السلطان وموالاته وبذل النفس في ذلك. واعلم أني والله لا أتعرض لك بمكروه سوى أن أبغضك لله تعالى، وما امتناعي عن التعرض لك بمكروه من عجز، بل أخاف الله رب العالمين من إيذاء من هو من جملة الموحدين.

وقد أخبرني من أثق بخبره وصلاحه وكراماته وفلاحه، أنك إن لم تبادر بالتوبة حلَّ بك عقوبة عاجلة تكون بها آية لمن بعدك ولا يأثم بها أحد من الناس، بل هو عدل من الله تعالى يوقعه بك عبرة لمن بعدك. فإن كنت ناظراً لنفسك فبادر بالرجوع من سوء أفعالك، وتدارك ما أسلفته من قبيح مقالك، قبل أن يحل بك ما لا تُقال به عثرتك، ولا تغترَّ بسلامتك وثروتك ووصلتك، وفكر في قول القائل:

قد نادت الدنيا على نفسها   لو كان في العالم من يسمع
كم واثق بالعمر واريته   وجامع بدَّدت ما يجمع

والسلام على من اتبع الهدى، والحمد لله رب العالمين».

● ● ●

والنووي من النادرين الذين يحسون بآلام الناس، وضيقهم ومظالمهم، ليس عنده من حب الذات ذرةٌ واحدة، ينطبق عليه قول المعري:

فلا نزلتْ علي ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

ولو أن كل أحد يشعر بآلام غيره، ويتلهف لكشف ضره لخفت مصائب الإنسانية.

وفي بعض الحديث المتفق عليه «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته. ومن مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزل الأقدام» والأحاديث كثيرة في هذا الباب.

والنووي رحمه الله عرف ذلك، فكان دقيقاً في تطبيقه، بل إن روحه امتزجت به، حتى لو أراد غير ذلك لما استطاع، ودونك مثالين رائعين آخرين من رفقه بالناس والحرص على مصالحهم، ولم يفد من هذا إلا ثواب العمل الصالح.

المثال الأول:

اجتاح بلاد الشام القحط في سنة من السنين التي عاشها النووي في عهد الملك الظاهر حتى غلت الأسعار، وقلَّت الغلات، وهلكت المواشي، فاجتمع مع أفراد من العلماء من الذين يؤثرون ما يؤثر من طاعة الله ومصلحة المسلمين على أن

يوقعوا كتاباً كتبه النووي، ليرفعه إلى الملك الظاهر عن طريق الأمير بيلبك[1].

يقول ابن العطار[2]:

وكان مواجهاً للملوك والجبابرة بالإنكار، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان إذا عجز عن المواجهة كتب الرسائل، وتوصل إلى إبلاغها.

فمما كتبه وأرسلني في السعي فيه، وهو يتضمن العدل في الرعية، وإزالة المكوس عنهم.

وكتب في ذلك شيخنا شيخ الإسلام أبو محمد عبد الرحمن ابن الشيخ أبي عمر شيخ الحنابلة، وشيخنا العلامة قدوة الوقت أبو محمد عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي شيخ المالكية[3] وشيخنا العلامة ذو العلوم أبو بكر محمد بن أحمد الشريشي، المالكي، وشيخنا العارف القدوة أبو إسحاق إبراهيم

---

(١) وهو الأمير بدر الدين الخازندار الظاهري، نائب المملكة وأتابك الجيوش، وكان موصوفاً بكثرة المعروف، ومحبة الصلحاء والعلماء، وحسن السيرة، توفي سنة ٦٧٦ أي في السنة التي توفي فيها النووي والملك الظاهر.

(٢) تحفة الطالبين ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥.

(٣) توفي أبو محمد الزواوي سنة ٦٨١ هـ، وكان بارعاً في الفقه وعلوم القرآن والقراءات.

ابن الشيخ العارف ولي الله عبدالله المعروف بابن الأرموي[1]، وشيخنا المفتي أبو حامد محمد ابن العلامة أبي الفضايل عبد الكريم ابن الحرستاني خطيب دمشق وابن خطيبها، وجماعة آخرون، ووضعها في ورقة كتبها إلى الأمير بدر الدين بيلبك الخزندار بإيصال ورقة العلماء إلى السلطان الظاهر التركي، وهذه صورتها:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

من عبدالله يحيى النواوي. سلام الله ورحمته وبركاته على المولى المحسن ملك الأمراء بدر الدين، أدام الله الكريم له الخيرات وتولاه بالحسنات، وبلغه من خيرات الآخرة والأولى كل آماله وبارك في جميع أحواله آمين.

وننهي إلى العلوم الشريفة أن أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيش، وضعف حال بسبب قلة الأمطار، وغلاء الأسعار وقلة الغلات والنبات، وهلاك المواشي وغير ذلك، وأنتم تعلمون أنه يجب الشفقة على الرعية والسلطان، ونصيحته في مصلحته ومصلحتهم، فإن الدين النصيحة، وقد كتب خدمة الشرع الناصحون للسلطان المحبون له كتاباً بتذكيره النظر في أحوال رعيته، والرفق بهم، وليس فيه ضرر، بل هو نصيحة

---

(١) في الأصل: ابن الأرمني، والتصحيح من الشذرات، توفي الشيخ رحمه الله سنة ٦٩٢ هـ.

محضة وشفقة تامة، وذكرى لأولي الألباب، والمسؤول من الأمير ـ أيده الله تعالى ـ تقديمه إلى السلطان، أدام الله له الخيرات، ونتكلم عليه من الإشارة بالرفق بالرعية بما يجده مدخراً له عند الله: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[1].

وهذا الكتاب الذي أرسله العلماء إلى الأمير أمانة ونصيحة للسلطان ـ أعز الله أنصاره ـ وأنتم مسؤولون عن هذه الأمانة، ولا عذر لكم في التأخر عنها، ولا حجة لكم في التقصير فيها عند الله تعالى وتسألون عنها ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ[2]﴾ ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[3]. وأنتم بحمد الله تحبون الخير وتحرصون عليه، وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات، وأفضل الطاعات وقد أُهِّلْتم له، وساقه الله إليكم وهو فضل من الله، ونحن خائفون أن يزداد الأمر شدة، إن لم يحصل النظر في الرفق بهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[4] وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[5].

---

(١) آل عمران ٣٠.
(٢) الشعراء ٨٨.
(٣) عبس ٣٤ ـ ٣٧.
(٤) الأعراف ٢٠١.
(٥) البقرة ٢١٥.

والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، مما إذا فعلتموه وجدتموه عند الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾[1] والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فلما وصلت الورقتان إليه ـ أي إلى الأمير الخزندار ـ أوقف عليهما السلطان، فلما وقف عليهما رد جوابهما جواباً عنيفاً مؤلماً، فتنكدت خواطر الجماعة الكاتبين وغيرهم. فكتب رحمه الله جواباً لذلك الجواب:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وسلم.

من عبدالله يحيى النواوي: يُنهي أن خدمة الشرع كانوا كتبوا ما بلغ السلطان أعز الله أنصاره، فجاء الجواب بالإنكار والتوبيخ والتهديد، وفهمنا منه أن الجهاد ذكر في الجواب على خلاف حكم الشرع، وقد أوجب الله إيضاح الأحكام عند الحاجة إليها فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[2] فوجب علينا حينئذ بيانه وحرم علينا السكوت، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى

---

(١) النحل ١٢٨.

(٢) آل عمران ١٨٧.

ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ ﴾[1] وذكر في الجواب: أن الجهاد ليس مختصاً بالأجناد، ولكن الجهاد فرض كفاية، فإذا قرر السلطان له أجناد مخصوصين، ولهم أخباز معلومة من بيت المال كما هو الواقع، تفرغ باقي الرعية لمصالحهم، ومصالح السلطان والأجناد وغيرها من الزراعة والصنائع وغيرها[2] مما[3] يحتاج الناس كلهم إليها، فجهاد الأجناد مقابل بالأخباز المقررة لهم ولا محل أن يؤخذ من الرعية شيء، ما دام في بيت المال شيء من نقد أو متاع أو أرض أو ضياع تباع أو غير ذلك.

وهؤلاء علماء المسلمين في بلاد السلطان ـ أعز الله أنصاره ـ متفقون على هذا، وبيت المال بحمد الله معمور زاده الله عمارة وسعة وخيراً وبركة في حياة السلطان المقرونة بكمال السعادة والتوفيق والتسديد، والظهور على أعداء الدين، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[4] وإنما يستعان في الجهاد وغيره بالافتقار إلى الله تعالى، واتباع آثار النبي ﷺ، وملازمته أحكام الشرع. وجميع ما كتبناه أولاً وثانياً هو النصيحة التي نعتقدها، وندين لله

(١) التوبة ٩١.
(٢) الأصل: أو غيرهم.
(٣) الأصل: الذي.
(٤) آل عمران ١٢٦.

بها، ونسأله الدوام عليها حتى نلقاه، والسلطان يعلم أنها نصيحة له وللرعية، وليس فيها ما نلام عليه، ولم نكتب هذا للسلطان إلا لعلمنا أنه يحب الشرع ومتابعة أخلاق النبي ﷺ في الرفق برعيته والشفقة عليهم، وإكرامه لآثار النبي ﷺ وكل ناصح موافق على هذا الذي كتبناه.

وأما ما ذكر في الجواب من كوننا لم ننكر على الكفار حين كانوا في البلاد، فكيف تقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان والقرآن بطغاة الكفار، وبأي شيء كنا نذكر طغاة الكفار، وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا. وأما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا، وتهديد طائفة فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه، وأي حيلة لضعفاء المسلمين المفرقين في أقطار ولاية السلطان في كتاب كتبه بعض المسلمين الناصحين نصيحة للسلطان ولهم، ولا علم لهم به، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه؟!.

وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا أكبر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان، فإني أعتقد أن هذا واجب عليَّ وعلى غيري، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[1] ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[2]. وقد أمرنا

---

(١) غافر ٣٩.

(٢) غافر ٤٤.

رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيث ما كنا، وألا نخاف في الله لومة لائم، ونحن نحب للسلطان معالي الأمور، وأكمل الأحوال وما ينفعه في آخرته ودنياه، ويكون سبباً لدوام الخيرات له، ويبقى ذكره له ممر الأيام، ويخلد في سننه الحسنة، ويجد نفعه ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾[1]. وأما ما ذكر من تمهيد البلاد، وإدامة الجهاد، وفتح الحصون، وقهر الأعداء، فهذا بحمد الله من الأمور الشائعة التي اشترك في العلم بها الخاصة والعامة، وسارت في أقطار الأرض ولله الحمد، وثواب ذلك مُدَّخر للسلطان إلى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، ولا حجة لنا عند الله تعالى إذا تركنا هذه النصيحة الواجبة علينا، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أما المثال الثاني:

فهو حرصه الشديد على مصلحة إخوانه من الفقهاء، فقد صدر مرسوم بأن الفقيه لا يكون منزَّلاً في أكثر من مدرسة واحدة، فانبرى النووي رحمه الله بمساعدتهم. ولا يظننَّ أحد أنه في ذلك ينفع نفسه، لأن النووي كان لا يأخذ شيئاً من أي مدرسة، حتى الخبز، وإن صدف وأخذ فما كان ينتفع به، وإنما كان يجمعه ليشتري كتباً أو داراً ويوقفها، ومحاولته هذه لا يقصد بها إلا الخير لغيره ولو لم يفد شيئاً، وعلى هذا كتب الكتاب الآتي:

---

(١) آل عمران ٣٠.

يقول ابن العطار[1]:

ومما كتبه بسبب الفقهاء لما رسم بأن الفقيه لا يكون منزَّلاً في أكثر من مدرسة واحدة وهذه صورته:

بسم الله الرحمن الرحيم. خدمة الشرع يُنْهُون أن الله تعالى أمرنا بالتعاون على البر والتقوى، ونصيحة ولاة الأمور وعامة المسلمين، وأُخذَ على العلماء العهد بتبليغ أحكام الدين، ومناصحة المسلمين، وحث على تعظيم حرماته، وإعظام شعائر الدين، وإكرام العلماء، وأتباعهم ، وقد بلغ الفقهاء أنه رسم في حقهم بأن يغيَّروا عن وظائفهم، ويُقطَعوا عن بعض مدارسهم، فتنكدت بذلك أحوالهم ،وتضرروا بهذا التضييق عليهم، وهم محتاجون ولهم عيال، وفيهم الصالحون والمشتغلون بالعلوم، وإن كان فيهم أفراد لا يلتحقون بمراتب غيرهم، فهم منتسبون إلى العلم ومشاركون فيه، ولا تخفى مراتب أهل العلم وفضلهم وثناء الله تعالى عليهم، وبيانه مزيتهم على غيرهم، وأنهم ورثة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وأن الملائكة ـ عليهم السلام ـ تضع أجنحتها لهم، ويستغفر لهم كل شيء حتى الحيتان.

واللائق بالجناب العالي إكرام هذه الطائفة والإحسان

---

(١) تحفة الطالبين ١٨.

إليهم، ومعاضدتهم، ودفع المكروهات عنهم، والنظر في أحوالهم بما فيه الرفق بهم، فقد ثبت في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به».

وروى أبو عيسى الترمذي بإسناده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه كان يقول لطلبة العلم: مرحباً بوصية رسول الله ﷺ، إن رسول الله ﷺ قال: «إن رجالاً يأتونكم يتفقهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً».

والمسؤول أن لا يغير على هذه الطائفة شيء، وتستجلب دعوتهم لهذه الدولة القاهرة، وقد ثبت في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم».

وقد أحاطت العلوم بما أجاب به الوزير نظام الملك حين أنكر عليه السلطان صرف الأموال الكثيرة في جهة طلبة العلم، فقال: أقمت لك بها جنداً لا تُرَد سهامهم بالأسحار، فاستصوب فعله وساعده عليه. والله الكريم يوفق الجناب دائماً لمرضاته والمسارعة إلى طاعته، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

● ● ●

هذا ما ظفرنـا به من رسائل للنـووي رحمـه الله، وكلهـا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا بد أنه كتب غيرها، ولو أردنا أن نحلل كتبه وندرس ما فيها دراسة مستفيضة لاحتجنا إلى الكثير مما لا يتسع له المقام. ونذكر هنا عنها ولو شيئاً قليلاً.

كان الأسلوب المتعارف في عصر النووي، أن تكتب أمثال هذه الرسائل بتأنق وسجع وكثير من التكلف، ويختار لها من الألفاظ ما يتناسب مع مقام الملوك من الفخامة والجرس، مع كثير من ألفاظ الخنوع للمكتوب له.

ولكن النووي غير بكتابته هذه الطرائق، فكان طبيعياً جداً يكتب كأنه يتكلم، بل ربما كانت كتابته أبسط من عبارته كما قال الذهبي، ولئن طرز مقدمات مؤلفاته بالسجع على عادة المؤلفين في عصره، لم يستحسن السجع في هذه الرسائل، لأن السجع في هذا المقام تكلف وضياع للمقصود، وقارىء الرسالة المسجوعة تشغله الصنعة عن التعمق بمضمونها والتأثر بها، والنووي إنما كان يريد أن يصل إلى قلب من كتب إليه بدون حاجز من صنعة أو زخرف.

وقد اشتملت رسائله من حيث المعنى على الترغيب والترهيب وقليل من المديح المحشو بالتهديد بالله، كما يلبَّس الدواء ـ وقد يكون مراً ـ بقليل من الحلاوة لتقبله النفس، ولكن

هذا قليل ضائع في الجمل الكثيرة في التخويف من الله الذي إليه المصير.

وبرز النووي في كتابته شجاعاً قوي الشكيمة، لا يرهب العتاة والجبارين ما دام مستمسكاً بحبل الله، يقول من رسالة: «وأما أنا في نفسي، لا يضرني التهديد ولا أكبر منه، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان» ويستشهد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾[1].

ثم يعود فيقول بغير تذلل، بل بطريقة تشبه طريقة كلام الأب حين يكلم ابنه المنحرف يشتد عليه ثم يلين، فيقول النووي بعد رفضه التهديد بقوة: «ونحن نحب للسلطان معالي الأمور وأكمل الأحوال».

هذا ومن الإنصاف أن أقول: إني لم أقرأ في حياتي - في مثل مقام النووي من الملك الظاهر - رسائل تشبهها بعد عهد الصحابة والتابعين، لا من حيث بلاغتها، فقد كان ما هو أبلغ، ولكن من حيث القوة والشجاعة والإخلاص والنفع.

وإذا كان النووي لا يبالي في سبيل الله وفي سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يُقْتَل أو يُقطع رزقه، فلا يبالي بالأَولى أن يُهان أو يُطرد أو يُضرب.

---

(١) غافر ٣٩.

يقول القطب اليونيني[1]: ولقد شاهدته مرة طلع إلى زاوية الشيخ خضر[2] بالجبل المشرف على المزة ـ أو على الربوة من جهة الغرب ـ وحدَّثه في أمره، وبالغ معه، وأغلظ له، فسمع الشيخ خضر كلاماً مؤلماً، فأمر بعض من عنده بإخراجه ودفعه، فما تأثر لذلك في ذات الله عز وجل، ولا رجع عن قصده لنفع يجلبه لبعض المسلمين، فقد كانت مقاصده جميلة، وأفعاله لله تعالى.

---

(١) ترجمة النووي للسخاوي ٥٤.

(٢) وقد ترجمه ابن كثير في البداية والنهاية بما يلي: خضر بن أبي بكر بن موسى الكردي النهرواني العدوي، ويقال أن أصله من قرية المحمدية من جزيرة ابن عمر، كان ينسب إليه أحوال ومكاشفات، ولكنه لما خالط الناس افتتن ببعض بنات الأمراء، وكان يقول عن الملك الظاهر وهو أمير: إنه سيلي الملك، فلهذا كان الملك الظاهر يعتقده ويبالغ في إكرامه بعد أن ولي المملكة، ويعظمه تعظيماً زائداً، وينزل عنده إلى زاويته في الأسبوع مرة أو مرتين، ويستصحبه معه في كثير من أسفاره، ويلزمه ويحترمه، ويستشيره فيشير عليه برأيه، ومكاشفات صحيحة مطابقة، إما رحمانية أو شيطانية، أو حال أو سعادة، إلى أن قال: فلما وقع ما وقع فيه حوقق عند السلطان، وتيسرى، وقلاوون والفارس أقطاي الأتابك، فاعترف، فهم بقتله، فقال له: بيني وبينك أيام قلائل، فأمر بسجنه فسجن سنين عديدة من سنة إحدى وسبعين إلى سنة ست وسبعين، ولم يزل مسجوناً حتى مات سنة ٦٧٦ وهي السنة التي توفي فيها النووي رحمه الله والملك الظاهر بيبرس.

هذه جملة من أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وهي كثيرة ويكفي أن تعلم أنه لا يمكن أن يسكت عن كل مخالفة شرعية مهما يكن مصدرها، من أدنى الناس إلى الملوك والرؤساء، ومن العامة إلى الخاصة، من غير كبر ولا عجب.

ومن الواعظين من يرى المنكر في صغار الناس، ولا يراه في كبارهم، ويراه في السوقة فيشتد بإنكاره، فإذا رآه في الكبار من الملوك والأمراء وذوي الأمر والنهي خَرِس، هذا إذا لم يختلق المبررات، ويخترع الفتاوى.

ثناء العُلماء عَليْه

أجمع العلماء والفقهاء والمحدثون، والزاهدون، والمتعبدون، على حب النووي والثناء عليه، لأنه جمع ذلك كلَّه، وأخلص لله فيما قرأ وفيما علّم وفيما ألَّف، ولا يكون ـ في الغالب ـ إجماع إلا ويكون عن علم وإخلاص، وما كان يضيق به إلا منحرف لصدعه بالحق، وإقدامه على النصيحة، وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، ومن هؤلاء الشيخ خضر الكردي، والشيخ المفتي العلامة الفركاح، وقد سبق الحديث عنهما.

وهاك طائفة من ثناء العلماء عليه:

وصفه ابن العطار[1] بقوله: شيخي وقدوتي، الإمام ذو التصانيف المفيدة والمؤلفات الحميدة، أوحد دهره، وفريد عصره الصَّوام القوام، الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، صاحب الأخلاق الرضية، والمحاسن السنية، العالم الرباني، المتفق على علمه وإمامته، وجلالته وزهده، وورعه وعبادته، وصيانته في أقواله وأفعاله وحالاته، له الكرامات الطافحة،

---

(١) تحفة الطالبين ٢ / ب و ٩ / ب.

والمكرمات الواضحة، والمؤثر بنفسه وماله للمسلمين، والعالم بحقوقهم وحقوق ولاة أمورهم بالنصح والدعاء في العالمين، مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه، والعمل بدقائق الفقه والاجتهاد بالخروج من خلاف العلماء ولو كان بعيداً، والمراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من الشوائب، يحاسب نفسه على الخطرة بعد الخطرة. وكان محققاً في علمه وفنونه، مدققاً في عمله وشؤونه، حافظاً لحديث رسول الله ﷺ، عارفاً بأنواعه كلها من صحيحه وسقيمه، وغريب ألفاظه وصحيح معانيه، واستنباطه فقهه، حافظاً للمذهب الشافعي وقواعده وأصوله وفروعه، ومذاهب الصحابة والتابعين واختلاف العلماء ووفاقهم وإجماعهم، وما اشتهر من ذلك جميعه وما هجر، سالكاً في كل ذلك طريقة السلف. قد صرف أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل، فبعضها للتصنيف، وبعضها للتعليم، وبعضها للصلاة وبعضها للتلاوة والتدبر، وبعضها للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقال ابن العطار[1]: قال لي الشيخ العارف المحقق المكاشف أبو عبد الرحيم محمد الإخميمي[2] قدس الله روحه

---

(١) تحفة الطالبين ١٠ / ب.

(٢) هو محمد بن الحسن بن إسماعيل، نزيل سفح قاسيون كان صاحب توجه وتعبد، وللناس فيه عقيدة عظيمة، توفي سنة ٦٨٤ هـ.

ونور ضريحه: كان الشيخ محيي الدين رحمه الله سالكاً منهاج الصحابة رضي الله عنهم، ولا أعلم أحداً في عصرنا سالكاً على مناهجهم غيره.

وقال الذهبي في سير النبلاء[1] :

الشيخ القدوة، الحافظ الزاهد العابد، الفقيه المجتهد الرباني، شيخ الإسلام، حسنة الأنام محيي الدين، صاحب التصانيف التي سارت بها الركبان، واشتهرت بأقاصي البلدان .... إلى أن قال: لازم الاشتغال والتصنيف محتسباً في ذلك مبتغياً وجه الله مع التعبد والصوم والتهجد والذكر والأوراد، وحفظ الجوارح، وذم النفس، والصبر على العيش الخشن، وملازمة كلية لا مزيد عليها، وكان مع ملازمته التامة للعلم، ومواظبته لدقائق العمل، وتزكية النفس من شوائب الهوى، وسيِّىء الأخلاق، ومحقها من أغراضها؛ عارفاً بالحديث، قائماً على أكثر فنونه، عارفاً برجاله، رأساً في نقل المذهب، متضلعاً من علوم الإسلام.

وقال الذهب أيضاً في العبر[2] : وكان ـ أي النووي ـ مع تبحره في العلم وسعة معرفته بالحديث والفقه واللغة وغير ذلك بما قد سارت به الركبان ـ رأساً في الزهد، وقدوة في الورع،

---

(١) نقلاً عن السخاوي ٥٨.
(٢) العبر ٥ / ٣١٢.

عديم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قانعاً باليسير، راضياً عن الله، والله عنه راض، مقتصداً إلى الغاية في ملبسه ومطعمه وإنائه، تعلوه سكينة وهيبة، فالله يرحمه ويسكنه الجنة بمنه.

وقال ابن كثير في طبقات الشافعية له[1] :

الشيخ الإمام، العلامة الحافظ، الفقيه النبيل، محرر المذهب ومهذبه، وضابطه، ومرتبه، أحد العباد والعلماء الزهاد، وكان على جانب كبير من العلم والعمل والزهد والتقشف، والاقتصاد في العيش، والصبر على خشونته، والتورع الذي لم يبلغنا عن أحد في زمانه، ولا قبله بدهر طويل.

وقال ابن العطار[2] : وكتب شيخنا أبو عبدالله محمد بن الظهير الحنفي الأربلي شيخ الأدب في وقته ـ رحمه الله ـ كتاب العمدة في تصحيح التنبيه للشيخ ـ قدس الله روحه ـ وسألني مقابلته معه بنسختي ليكون له رواية عنه مني، فلما فرغنا من ذلك **قال لي: ما وصل الشيخ تقي الدين بن الصلاح إلى ما وصل إليه الشيخ محيي الدين من العلم في الفقه والحديث واللغة وعذوبة اللفظ والعبارة.**

---

(١) ترجمة النووي للسخاوي ٦١.

(٢) تحفة الطالبين ١٠ / ب.

وقال الشيخ شمس الدين بن الفخر الحنبلي: كان ـ أي النووي ـ **إماماً بارعاً حافظاً متقناً، أتقن علوماً جمة وصنف التصانيف الجمة، وكان شديد الورع والزهد، تاركاً لجميع الرغائب من المأكول إلا ما يأتيه به أبوه من كعك وتين.**

وأرخه الشيخ قطب الدين اليونيني[1] وقال: **كان أوحد زمانه في العلم والورع والعبادة والتقلل وخشونة العيش، واقف الملك الظاهر بدار العدل غير مرة، فحكي عن الملك الظاهر أنه قال: أنا أفزع منه. أهـ.**

أقول: وهكذا من خاف الله خافه كل شيء.

يقول السخاوي[2]: ونقل التاج السبكي في التوشيح عن والده ـ التقي ـ أنه قال:

ما اجتمع بعد التابعين المجموع الذي اجتمع في النووي ولا التيسير الذي يسر له.

وقال المؤرخ صارم الدين إبراهيم بن دقماق الحنفي في تاريخه «نزهة الأنام»[3]:

---

(١) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٧٣.

(٢) تاريخ النووي ٣٤.

(٣) السخاوي ٦٢ ـ ٦٣.

الشيخ الإمام القدوة، العلامة الزاهد، العابد الناسك الخاشع، شيخ الوقت، فريد العصر، بركة الزمان، لم يكن في زمانه مثله في دينه وعمله وزهده وورعه، وكانت مقاصده جميلة، وأفعاله لله تعالى.

وقال ابن كثير[1] : وقد كان ـ أي النووي ـ من الزهادة والعبادة والورع والتحري والانجماح عن الناس، على جانب كبير، لا يقدر عليه أحد من الفقهاء غيره.

وقال السيوطي: النووي الإمام الفقيه الحافظ الأوحد. شيخ الإسلام، علم الأولياء.

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام[2] :

مفتي الأمة، شيخ الإسلام، الحافظ النبيه، أحد الأعلام، علم الأولياء.

ويقول التاج السبكي في الطبقات الكبرى[3] وبالجملة:

كان قطب زمانه، وسيد وقته، وسر الله بين خلقه.

وقال التاج السبكي في الطبقات الوسطى[4] :

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٢٧٩.
(٢) السخاوي ٥٨.
(٣) الطبقات الكبرى ٨/ ٣٩٧.
(٤) السخاوي ٦٠ ـ ٦١.

الشيخ الإمام، شيخ الإسلام، أستاذ المتأخرين، حجة الله على اللاحقين، ما رأت الأعين أزهد منه في يقظة ومنام، ولا عاينت أكثر اتباعاً منه لطرق السالفين من أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، له التصانيف المفيدة، والمناقب الحميدة، والخصائل التي جمعت طارف كل فضل وتليده، والورع الذي خرب به دنياه، وجعل دينه معموراً، والزهد الذي كان يحيى به سيداً وحصوراً. هذا إلى قدر في العلم لو أطل على المجرة لما ارتضى سرياً في أعطانها، أو جاور الجوزاء لما استطاب مقاماً في أوطانها، أو حل في دارة الشمس لأنف من مجاورة سلطانها. وطالما فاه بالحق لا تأخذه لومة لائم، ونادى بحضرة الأسود الضراغم وصدع بدين الله بمقال ذي سريرة يخاف يوم تبلى السرائر، ونطق معتصماً بالباطن الظاهر غير ملتفت إلى الملك الظاهر، وقبض على دينه والجمر يلتهب، وصمم على مقاله والصارم للأرواح ينتهب، لم يزل طول عمره على طريقة أهل السنة والجماعة، مواظباً على الخير لا يصرف منه ساعة في غير طاعة . . . إلى أن قال: فكان قطب زمانه، وسيد وقته، وسر الله بين خلقه. والتطويل بذكر كراماته تطويل في مشهور، وإسهاب في معروف، وقد سافرت لزيارة قبره بنوى وزرته، أعاد الله علينا وعلى المسلمين من بركاته.

وأفرد ترجمته: التقي محمد بن الحسن اللخمي في أربعة

أوراق وقال[1]:

إنه كان عالماً بالفقه وفروعه من أقوال الشافعي رحمه الله وأوجه أصحابه، مكث نحو عشرين سنة، يفتي ويعلم الناس العلم والفقه والحديث والأدب والزهد، وكان ليس في عصره في بلاد المسلمين مثله، محققاً حافظاً متقناً ورعاً، مدققاً في الحديث، عالماً بصحيحه وحسنه، وسقيمه وغريبه وأحكامه عارفاً بلغته وأسماء رجاله، وضبطهم وجرحهم وتعديلهم ومواليدهم ووفياتهم، محققاً في الألفاظ المشكلة، له في متونه يد طولى، كثير النقل جداً، مداوماً للمطالعة والتأليف، عارفاً بفن التصريف، وفن العربية واللغة كثير النقل منهما، عارفاً بالأصلين معرفة جيدة، وبالقراءات السبع وغيرها، كثير الخبرة بمذاهب العلماء المشهورة والمهجورة، لين القلب، سالكاً طريق السلف في الزهد في الدنيا، والمبالغة في الخشوع والورع. غزير الدمعة، كثير الصمت حافظاً للسانه أشد الحفظ، غاضاً للطرف، طويل الفكر، حسن الأخلاق جداً، إذا آذاه أحد ، يقول له: يا مبارك الحال . مثابراً على الصوم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أشد المواطن وأصعبها، محاسباً لنفسه. حافظاً لأوقاته، قد جزأ كل وقت منها لنوع من العمل، فغالبها للاشتغال بالعلم، وبعضها للتعليم والعبادة، كالصلاة بالليل والتسبيح

---

(١) السخاوي ٥٦ ـ ٥٧.

والقراءة بالتدبر. أثنى عليه الأئمة الصلحاء والعلماء العارفون، وتأسف المسلمون عليه بعد مماته أسفاً بليغاً، وجزعوا عليه جزعاً شديداً الخاص منهم والعام، والمادح في حال حياته والذام.

وقال اليافعي في مرآة الجنان[1] عن النووي:

الفقيه الإمام شيخ الإسلام، مفتي الأنام، المحدث المتقن، المحقق المدقق، النجيب الحبر المفيد، القريب والبعيد، محرر المذهب ومهذبه وضابطه ومرتبه، أحد العباد الورعين الزهاد، العالم العامل، المحقق الفاضل، الولي الكبير، السيد الشهير، ذو المحاسن العديدة والسيرة الحميدة والتصانيف المفيدة، الذي فاق جميع الأقران، وسارت بمحاسنه الركبان، واشتهرت فضائله في سائر البلدان ، وشوهدت منه الكرامات وارتقى في أعلى المقامات، ناصر السنة، ومعتمد الفتاوى.

إلى أن قال: لعمري إنه عديم النظير في زهده وورعه وآدابه وجميل سيرته، وسائر محاسنه فيمن بعده من العلماء.

وهناك الكثير الكثير من ثناء العلماء عليه، اختصرنا من ذلك ما قدمناه، والخلاصة في الثناء عليه ما قاله ابن العطار[2]: قال: قال لي المحدث أبو العباس أحمد بن فرح الإشبيلي، ونقله

---

(١) ٤/ ١٨٢.

(٢) تحفة الطالبين ١٩.

الذهبي أيضاً عن شيخه ابن فرح[1] قال:

كان الشيخ محيي الدين قد صار إليه ثلاث مراتب، كل مرتبة منها لو كانت لشخص شدت إليه آباط الإبل من أقطار الأرض، المرتبة الأولى: العلم والقيام بوظائفه. الثانية: الزهد في الدنيا وجميع أنواعها. الثالثة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويرحم الله ابن العطار تلميذه إذ يقول[2]: **ورأيت منه أموراً تحتمل مجلدات.**

إكباره وتقديره:

من أعظم ما كان يمتاز به كبار العلماء في كل العصور وخصوصاً العلماء العاملين أن يقدر بعضهم بعضاً، وأن يكبر أحدهم من هو أجلّ منه، ويعتز بمصاحبته والانتفاع بعلمه وحِكَمه وتجاربه، وإذا لم يدركه تبارك بآثاره، ونظر في كتبه وازداد له تقديراً واحتراماً. وفي هذا الباب نذكر حادثتين بطلهما واحد هو مجتهد وقته الشيخ تقي الدين السبكي مع الإمام النووي.

إحداهما: يقول التاج السبكي ولد التقيوتلميذه[3]: وأنا

---

(١) تذكرة الحفاظ ٤: ١٤٧٣.

(٢) السخاوي ٥٥.

(٣) الطبقات الكبرى ٨/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦.

إذا أردت أن أجمل تفاصيل فضله ـ أي النووي ـ وأدل الخلق على مبلغ مقداره بمختصر القول وفصله،لم أزد على بيتين أنشدنيهما من لفظه لنفسه الشيخ الإمام ـ يعني والده التقي السبكي ـ وكان من حديثهما: أنه لما سكن في قاعة دار الحديث الأشرفية في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة، كان يخرج في الليل إلى إيوانها، ليتهجد تجاه الأثر الشريف، ويمرغ وجهه على البساط، وهذا البساط من زمان الأشرف الواقف، وعليه اسمه، وكان النووي يجلس عليه وقت الدرس ، فأنشدني الوالد لنفسه:

وفي دار الحديث لطيف معنى ... على بسط لها أصبو وآوي
عساني أن أمسّ بحرِّ وجهي ... مكاناً مسَّه قدم النواوي

والحادثة الثانية[1]: ما حكاه التاج أيضاً عن والده التقي: أنه رافق في مسيره ـ وهو راكب بغلته ـ شيخاً ماشياً، فتحادثا، فكان في كلام ذاك الشيخ أنه رأى النواوي. قال: ففي الحال نزل الوالد عن بغلته، وقبّل يد ذاك الشيخ، وهو عامي جلف وسأله الدعاء، ثم دعاه حتى أردفه معه، وقال: لا أركب وعين رأت وجه النووي تمشي بين يدي أبداً. قال: وما زال ـ يعني الوالد رحمه الله ـ كثير الأدب معه ـ يعني النووي ـ والمحبة له والاعتقاد فيه.

---

(١) السخاوي ٦٠.

ثناؤه على العلماء:

من المعلوم أن النووي له كتاب الطبقات وقد تقدم ذلك، وبدهي أنه رضي الله عنه لا يمدح أحداً إلا بما فيه، وعلى قدر ما فيه. وبأيدينا نموذج عن ثنائه، ودونك بعضه.

قال النووي عن الرافعي[1]: الرافعي من الصالحين المتمكنين كانت له كرامات كثيرة.

ويقول النعيمي[2] صاحب الدارس[3]: كان الشيخ النووي يثني على الشهاب أحمد العنابي، ويرسل له الصبيان ليقرَؤوا عليه في بيته لأمانته عنده، وصيانته وديانته.

وقال النووي[4] عن ضياء الدين الدولعي[5]: كان شيخ شيوخنا، وكان أحد الفقهاء المشهورين، والصلحاء الورعين.

وقال النووي عن ابن عساكر[6]: هو حافظ الشام، بل هو حافظ الدنيا، الإمام مطلقاً، الثقة الثبت.

---

(١) الطبقات الكبرى للسبكي ٨/ ٢٨٤.

(٢) وهو عبد القادر بن محمد بن عمر، مؤرخ دمشق في عصره ومن علماء الحديث، توفي في دمشق سنة ٩٢٧ هـ.

(٣) الدارس ٢/ ١٤١.

(٤) الدارس ١/ ٤١٩.

(٥) وهو عبد الملك بن زيد الثعلبي الدولعي، فقيه شافعي كبير. توفي سنة ٥٩٨هـ

(٦) الطبقات الكبرى ٧/ ٢١٩.

حليته وبعض أخباره

حلية النووي وبزته:

لو رأى النوويَّ أحدٌ لا يعرفه، لظنه أحد فلاحي نوى أتى دمشق يزورها، فليس عليه مما يظهر به علماء زمانه من فخامة الزي الذي اختصوا به، ذلك لأنه زاهد قانع، لا يعير شيئاً من إقباله واهتمامه لعرض من أعراض الدنيا، فكل همه مصروف لآخرته من علم وتعليم، وصدق مع الله وصدق مع نفسه، مع انشغاله بالعبادة، فخوف الله تعالى أخذ عليه كل طريق. يقول الذهبي في وصفه[1]: كان أسمرَ، كث اللحية، رَبعة، مهيباً، قليل الضحك، عديم اللعب، بل جدّ صرف، يقول الحق وإن كان مراً، لا يخاف في الله لومة لائم.

ووصفه الذهبي أيضاً: بأن لحيته سوداء فيها شعرات بيض، وعليه هيئة وسكينة. وقال الأسنوي[2]: كان في لحيته شعرات بيض، وعليه سكينة ووقار في البحث مع الفقهاء.

---

(١) ترجمة النووي للسخاوي ٣٩.

(٢) شذرات الذهب ٥/٣٥٦.

وأما بزته: فيقول الذهبي في تاريخ الإسلام[1]: وكان في ملبسه مثل آحاد الفقهاء من الحوارنة لا يؤبه له، عليه شبختانية صغيرة. وقال في التذكرة[2]: ملبسه ثوب خام، وعمامة شبختانية صغيرة. وقال في التذكرة[3] أيضاً: وكان يلبس الثياب الرثة، ولا يدخل الحمام، وكانت أمه ترسل له القميص ونحوه ليلبسه.

مأكله ومشربه:

كان رحمه الله خشن العيش، قانعاً بالقوت، تاركاً للشهوات صاحب عبادة وخوف[4]، وكان لا يأكل في اليوم والليلة إلا أكلة واحدة، وقوته من قِبَل والده، يجري عليه في الشهر الشيء الطفيف، وكان لا يشرب إلا مرة بالسحر[5].

قال الشمس بن الفخر: إنه كان قد ترك جميع ملاذ الدنيا من المأكول، إلا ما يأتيه به أبوه من كعك يابس وتين حوراني، وترك الفواكه جميعها[6]. وكان لا يأكل في اليوم والليلة سوى أكلة واحدة بعد العشاء الآخرة، ولا يشرب إلا شربة واحدة عند

---

(١) ترجمة النووي للسخاوي ٣٩.
(٢) التذكرة ٤/ ١٤٧١.
(٣) التذكرة ٤/ ١٤٧٤.
(٤) مفتاح السعادة ١/ ٣٩٨.
(٥) طبقات السبكي ٨/ ٣٩٧.
(٦) ترجمة النووي ٣٨.

السحر، وإذا شرب فلا يشرب الماء المبرد[1].

وقال ابن دقماق: إنه كان يأكل من خبز يبعثه له أبوه ويشترون له ما يكفيه جمعة، فيأكله ولا يأكل معه سوى لون واحد، إما دبس، وإما خل، وإما زيت، وإما اللحم ففي كل شهر مرة، ولا يكاد يجمع بين لونين من إدام أبداً[2].

وقال الكمال الأدفوي: ولا يأكل اللحم إلا عندما يتوجه لنوى[3].

ويقول ابن العطار: ورأيت رجلاً من أصحابه قشر خيارة ليطعمه إياها، فامتنع من أكلها، وقال أخشى أن ترطب جسمي وتجلب النوم[4]، قال السخاوي: ونحوَه عدم تعاطيه البلح على عادة الدمشقيين[5].

وعزم عليه الشيخ برهان الدين الأسكندراني أن يفطر عنده في رمضان، فقال: أحضر الطعام إلى هنا ونفطر جملة، قال ابن العطار: فأفطرنا ثلاثين أو أكثر على لونين من الطعام، وكان الشيخ في بعض الأوقات يجمع إدامين[6].

---

(١) ترجمة النووي للسخاوي ٣٩.

(٢) نفس المصدر.

(٣) نفس المصدر.

(٤) ترجمة النووي ٣٨.

(٥) ترجمة النووي ٣٨.

(٦) ترجمة النووي ٣٨.

وفي البدر السافر حكاية عن قاضي القضاة الجمال سليمان الزرعي: أنه كان يتردد إليه وهو شاب، قال: فجئت إليه في يوم عيد فوجدته يأكل خزيرة[1] مدخنة، فقال: سليمان، كل، فلم تطب لي، فقام أخوه وتوجه إلى السوق، وأحضر شواء وحلوى وقال له: كل، فلم يأكل فقال له: يا أخي أهذا حرام؟ فقال: لا، ولكنه طعام الجبابرة[2]. وقلت: وسمعت أهل دمشق يذكرون أنه كان يشرب من عين الوراقة[3].

النووي لم يتزوج:

إنَّ النووي لم يتزوج قط. ولعل السبب في ذلك أنه زاهد في متع الدنيا كلها، بل ليس في عقله وقلبه ذرة واحدة يمكن أن تعبأ بغير ما صرف حياته كلها إليه، من تحصيل العلم والتقوى والعبادة، فإذا كان مدة طلبه العلم لم ينم إلا قليلاً ـ وفي النوم راحة الجسم وراحة العقل والحواس ـ فكان إذا غلبه النوم استند إلى الجدار قليلاً وهو جالس، ثم يستيقظ مذعوراً كأن شيئاً ثميناً سرق منه، وأثمن شيء لديه وقته فإذا كانت هذه حاله في النوم وهو من ضرورات الحياة، فحاله في إشغال نفسه بالزواج أبعد من أن تخطر على باله. وإذا قلنا: أنه قطع التفكير في الجنس

---

(١) الخزيرة: دقيق يلقى على ماء أو على لبن فيطبخ.
(٢) ترجمة النووي للسخاوي ٣٩.
(٣) المرجع نفسه.

قطعاً بائناً من مطلع شبابه لا نبعد عن الصواب. ومن طريف ما حكى عن نفسه ـ كما سمع منه تلميذه ابن العطار ورواه عنه ـ أنه في أول طلب العلم قرأ أن من موجبات الغسل التقاء الختانين، فكان يظن المعنى أن ذلك قرقرة في البطن، فكلما قرقر بطنه ذهب فاغتسل، حتى أصابه من ذلك عَنَت ومرض، وبعد زمن عرف المراد.

وقد يكون تركه للزواج نابعاً من الورع ومخافة الله، فهو يخشى إن تزوج ألا يستطيع أن يعطي الزوج حقها، والله تعالى يقول: ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ﴾[1] وهي إمارة المجتمع الصغير: الأسرة. وقد تحدث النووي عما عليها من حقوق في شرحه لمسلم[2] تعليقاً على حديث عن أسماء «أنها كانت تعلف فرس زوجها الزبير وتكفيه مؤونته وتسوسه، وتدق النوى لناضحه، وتستسقي الماء وتعجن»، فيقول النووي: «هذا كله من المعروف والمروات التي أطبق الناس عليها، وهو أن المرأة تخدم زوجها بهذه الأمور المذكورة ونحوها من الخبز والطبخ وغسل الثياب وغير ذلك، وكله تبرع من المرأة وإحسان منها إلى زوجها وحسن معاشرة، وفعل معروف معه، ولا يجب عليها شيء من ذلك بل لو امتنعت

---

(١) البقرة ٢٢٨.

(٢) شرح مسلم ١٤/ ١٦٤.

من جميع هذا لم تأثم، ويلزمه هو تحصيل هذه الأمور لها، ولا يحل له إلزامها بشيء من هذا، وإنما تفعله المرأة تبرعاً، وهي عادة جميلة استمر عليها النساء من الزمن الأول إلى الآن، وإنما الواجب على المرأة شيئان: تمكينها زوجها من نفسها وملازمة بيته».

فالنووي الذي يعرف هذه الحقوق للمرأة يخشى أن يغضب من تقصيرها في أمر لم يكلفها الشارع فيه، فيسخط الله في ذلك، ولكن جاهلية القرون كلها لا تعرف ذلك، فربما غضب عليها، وربما ضُربت، بل ربما طُلِّقت لأمر من هذه الأمور التي إنما تفعلها المرأة تبرعاً، ولم يكن قط طول الزمن سبباً في جعل المروآت والتبرعات واجبات تُؤاخذ المرأة على تركها.

شعره وما تمثل به:

قلّ من العلماء من لم يجرب أن يقول الشعر، فمنهم المقل ومنهم المكثر، وليس شعرهم بالطبع يمكن أن يرتفع إلى درجة الشعر بل أكثره أقرب إلى النظم.

ومن قرأ سيرة النووي لا يفترض فيه أن يكون شاعراً. أو على الأقل أن ينظم البيتين أو الثلاثة، فقد تكثفت حياته وامتلأت امتلاء لا مزيد عليه بجد الجد ولب اللب، لذلك أستبعد أن يكون قد نظم بيتاً واحداً، ولكن السخاوي قال[1]: وقيل أنه سُمع

(١) ترجمة النووي له ٢٩.

من الشيخ ـ أي الشعر ـ قربَ وفاته، ووجد في موضع آخر نسبتها إليه، وأنه ليس له نظم غيره:

بشـائـر قلبـي فـي قـدومـي عليهـمُ
ويـا لَسـروري يـوم سَيْـري إليهـم
وفـي رحلتـي يصفـو مقـامـي وحبـذا
مقـام بـه حـط الـرحـال إليهـمُ
ولا زاد لـي إلا يقينـي بـأنهـم
لهـم كـرم يغنـي الـوفـود عليهـمُ

ووجد بخطه أبيات متفرقه ظنها بعضهم أنها من شعره، والأشبه أن يكون ذلك مما تمثل به وليس من نظمه، من ذلك أنه وجد بحاشية نسخة من الروضة من الشعر قوله أو قول غيره:

وأنـت الـذي أرجـوه فـي الأمـر كلـه
عليـك اعتمـادي فـي جميـع النـوائـب
وأنـت الـذي أدعـوك سـراً وجهـرة
أجرني بلطف من جميع المصائب

وبخط تلميذه العلاء بن العطار أنه وجد بخطه أيضاً:

أمـوت ويبقـى كـل مـا قـد كتبتـه
فيـاليـت مـن يقـرأ كتـابـي دعـا ليـا
لعـل إلهـي أن يمـن بلطفـه
ويـرحـم تقصيـري وسـوء فعـاليـا

سفره لزيارة الشافعي:

لم أقرأ هذا الخبر في كتاب من الكتب التي ترجمت للنووي، ولكن مصحح كتاب ترجمة النووي للسخاوي محمود حسن ربيع أتى بهذا الخبر مع أخبار أخرى وقال: إنه نقلها من شرح الأربعين للقلعاوي، وفيه كيف يكون المرء في زيارة قبور الأنبياء والعلماء والأولياء الصالحين، ومَنْ هُم أعلى منه شأناً وأفضلُ علماً وديناً وتقوى، وهذا هو الخبر[1]:

«سافر ـ أي النووي ـ إلى القاهرة لزيارة الإمام الشافعي رضي الله عنه، فلما عاين قبته وقف هناك، ولم يخط خطوة لجهته، فقيل له: هلاَّ تقدمت؟ فقال: لو كان الإمام حياً ورأيت خيامه، كان يلزمني الوقوف بمجرد رؤيتها. ثم رجع من غير أن يشعر به أحد من أهلها»!! رجل عرف حده فوقف عنده. ولو أنه رحمه الله أنصف نفسه لرأى أنه يمكن أن يكون من خُلَّص تلاميذه ومن أفقههم لو كان حياً زمن الإمام الشافعي، ولكنه التواضع، وإنكار الذات، والأدب العالي، وتقدير إمامه إمام المذهب الشافعي، وهكذا ينبغي احترام الكبار والأدب معهم أمواتاً وأحياء.

---

(١) ترجمة النووي للسخاوي ٨٢.

مدة إقامته بدمشق:

أقام النووي رحمه الله في دمشق نحواً من ثمانية وعشرين سنة كما يقول ابن العطار[1]، ومعنى هذا أنه حين قدم على دمشق كان عمره ثماني عشرة سنة.

وحين قدمها لم يترك الإقامة بها كل هذه المدة إلا للحج، أو زيارة الشافعي، أو بلده نوى لصلة أهله، وكل هذه الفترة أمضاها في بيت صغير في مدرسة الرواحية ـ وقد تقدم وصفها ـ يتعلم ويعلم، ويؤلف الكتب، إلى أن وافته المنية رحمه الله تعالى.

* * *

(١) تحفة الطالبين ٣ / أ.

مُؤلَّفاتُه

تُعرف قيمة العالم وشخصيته بتآليفه، وما ينازعنا القولَ أحد ممن له أدنى مُسْكة من العلم إلى من له في العلم مرتبة شيخ الشيوخ، بِعظم قيمة مؤلفات النووي رحمه الله، وستعرف ذلك حين نتحدث عن كل كتاب على حدة.

والعظيم حقاً أن النووي عاش نحواً من ست وأربعين سنة، وترك من المؤلفات ما لو قسم على سني حياته لكان نصيب كل يوم كراستين ـ كما قدمنا ـ، فإذا علمنا أنه لم يبدأ في طلب العلم إلا في سن الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة، وأنه أخذ في التصنيف من حدود الستين والست مائة وإلى أن مات كما يقول الذهبي رحمه الله[1]، أي بعد مكثه في دمشق عشر سنوات، علمنا أي مضاء وقدرة وصلاح وبركة في عمره.

فإذا أضفنا إلى ذلك انشغاله بتعليم الطلبة وقراءة الكتب، عرفنا أنه ما كان يضيع من وقته اللحظة الواحدة، إما في قراءة أو

---

(١) العبر «٥/ ٣١٢».

تعليم، أو تأليف، أو عبادة، ولقد حكي عنه[1]: أنه كان يكتب حتى تكل يده فتعجزه، فيضع القلم ثم ينشد:

لئن كان هذا الدمع يجري صبابة
على غير سُعدى فهو دمع مضيع

وقال الكمال الأدفوي: كل ذلك - أي تصنيف مصنفاته - في زمن يسير وعمر قصير.

وقال تلميذه ابن العطار[2]: وانتفع الناس بسائر البلاد بتصانيفه، وأكبوا على تحصيل تواليفه، حتى رأيت من كان يشنؤها (يبغضها) في حياته - في حياة النووي - مجتهداً في تحصيلها، والانتفاع بها بعد موته، فرحمه الله ورضي عنه، وجمع بيننا وبينه في جناته.

وقال اليافعي[3]: ولا شك أن الإمام محيي الدين النواوي مبارك له في عمره، ولقد بلغني أنه حصلت له نظرة جمالية من نظرات الحق سبحانه بعد موته، فظهرت بركتها على كتبه، فحظيت بقبول العباد والنفع في سائر البلاد.

وقد ألف النووي في علوم شتى: الفقه، والحديث،

---

(١) السخاوي (٢٤).

(٢) تحفة الطالبين ٩/أ.

(٣) مرآة الجنان ٤/ ١٨٥.

وشرح الحديث، والمصطلح، واللغة والتراجم، والتوحيد، وغير ذلك وتمتاز مؤلفاته بالوضوح، وصحة التعبير وانسيابه بسهولة وعدم تكلف. يقول الذهبي: إن عبارته أبسط من كلامه.

وأسلوبه أسلوب عصره مع عذوبة في الألفاظ، حتى إن ابن مالك النحوي الشهير اشتهى أن يحفظ المنهاج كما سيأتي إعجاباً بما يكتب ويؤلف، وهو إذا أطال لا يدع شاردة ولا واردة مما يمتع ويفيد، وإذا اختصر أتى بما يعجب ويدهش.

ولثقة الناس عامتهم وخاصتهم بالنووي وعلمه وورعه وأمانته وحسن تأليفه، بادروا إلى اقتنائها ودراستها والعزو إليها، حتى انتشرت في الآفاق، وحرص عليها الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي، فالنووي فوق التعصب المذهبي، فإن لم يتخذ المتمذهبون بغير مذهبه كتبه أساساً لهم، فلا أقل من أن يرجعوا إليها ليطلعوا على دليل مذهبه الشافعي، وأما كتبه غير الفقهية فيستوي فيها الموافق والمخالف.

ومؤلفات النووي ثلاثة أقسام: قسم أنجزه وأتمه، قسم أدركته الوفاة قبل أن يتمه، وقسم غسل أوراقه ـ أي محاها ـ وكانوا يغسلونها لأمر ما ولا يتلفونها لحاجتهم إلى ورقها.

● **ونبدأ بما أنجز من مؤلفاته**، وهذه هي: شرح مسلم، الروضة، المنهاج، رياض الصالحين، الأذكار، التبيان، تحرير التنبيه، تصحيح التنبيه، الإيضاح في المناسك، الإرشاد،

التقريب، الأربعين، بستان العارفين، مناقب الشافعي، مختصر أسد الغابة، الفتاوى، أدب المفتي والمستفتي، مختصر آداب الاستسقاء، رؤوس المسائل، تحفة طلاب الفضائل، الترخيص في الإكرام والقيام، مسألة تخميس الغنائم، مختصر التذنيب، مسألة نية الاغتراف، دقائق المنهاج والروضة، التقريب والتيسير.

وسنتحدث عنها كتاباً كتاباً:

شرح مسلم:

ما عرف الناس شرحاً لكتاب في الحديث أتقن وأوفى وأبرع ـ مع اختصار ـ من كتاب شرح صحيح مسلم للنووي، فإنه لم يدع لقارئه مهما يبلغ علمه سؤالاً في سره أو في علنه إلا ووجد جوابه فيه، من بحث السند إذا كان فيه ما يبحث، ومن لغة وما يتعلق بها، ومن تسمية لما يجهل اسمه، ومن شرح المعنى، ومما يستنبط من الحديث، ومن قال بظاهر الحديث ومن خالف وما حجته، مع فوائد كثيرة وعلوم غزيرة لا تستقصى.

يقول رحمه الله في مقدمة الشرح: «وأما صحيح مسلم رحمه الله فقد استخرت الله تعالى الكريم الرؤوف الرحيم في جمع كتاب في شرحه متوسط بين المختصرات والمبسوطات، لا من المختصرات المخلّات ولا من المطوّلات المملات، ولولا

ضعف الهمم، وقلة الراغبين، وخوف عدم انتشار الكتاب لقلة الطالبين للمطولات، لبسطته فبلغت به ما يزيد على مائة من المجلدات، من غير تكرار ولا زيادات عاطلات، بل ذلك لكثرة فوائده، وعظم عوائده الخفيات والبارزات، وهو جدير بذلك، فإنه كلام أفصح المخلوقات ﷺ صلوات دائمات، لكني أقتصر على التوسط، وأحرص على ترك الإطالات، وأوثر الاختصار في كثير من الحالات، فأذكر فيه إن شاء الله جملاً من علومه الزاهرات من أحكام الأصول، والفروع، والآداب، والإشارات، والزهديات، وبيان نفائس من أصول القواعد الشرعيات، وإيضاح معاني الألفاظ اللغوية، وأسماء الرجال، وضبط المشكلات، وبيان أسماء ذوي الكنى، وأسماء آباء الأبناء والمبهمات، والتنبيه على لطيفة من حال بعض الرواة وغيرهم من المذكورين في بعض الأوقات، واستخراج لطائف من خفيات علم الحديث من المتون والأسانيد المستفادات، وضبط جمل من الأسماء المؤتلفات والمختلفات، والجمع بين الأحاديث التي تختلف ظاهراً، ويظن بعض من لا يحقق صناعَتَيْ الحديث والفقه وأصوله كونها متعارضات، وأنبه على ما يحضرني في الحال في الحديث من المسائل العمليات، وأشير إلى الأدلة في كل ذلك إشارات إلا في مواطن الحاجة إلى البسط للضرورات، وأحرص في جميع ذلك على الإيجاز وإيضاح العبارات.

وحيث أنقل شيئاً من أسماء الرجال واللغة وضبط المشكل

والأحكام والمعاني وغيرها من المنقولات، فإن كان مشهوراً لا أضيفه إلى قائليه لكثرتهم إلا نادراً لبعض المقاصد الصالحات، وإن كان غريباً أضفته إلى قائليه إلا أن أذهل عنه في بعض المواطن لطول الكلام، أو كونه مما تقدم بيانه في الأبواب الماضيات، وإذا تكرر الحديث أو الاسم أو اللفظة من اللغة ونحوها بسطت المقصود منه في أول مواضعه، وإذا مررت على الموضع الآخر ذكرت أنه تقدم شرحه وبيانه في الباب الفلاني من الأبواب السابقات، وقد أقتصر على بيان تقدمه من غير إضافة، أو أعيد الكلام فيه لبعد الموضع الأول، أو ارتباط كلام أو نحوه أو غير ذلك من المصالح المطلوبات.

وأقدم في أول الكتاب جملاً من المقدمات مما يعظم النفع به إن شاء الله تعالى، ويحتاج إليه طالبو التحقيقات، وأرتب ذلك في فصول متتابعات، ليكون أسهل في مطالعته وأبعد من السآمات»[١].

هذا وشرح مسلم من آخر ما ألف، فقد ألفه بعد سنة أربع وسبعين وستمائة، دليل ذلك قوله في صحيح مسلم[٢]: «وقد أوضحت هذا جزء جمعته في قسمة الغنائم حين دعت الضرورة إليه في أول سنة أربع وسبعين وستمائة» أي قبل وفاته في أقل من

---

(١) مقدمة شرح مسلم ٥ ـ ٦.

(٢) شرح مسلم ١٢/ ٥٧.

سنتين، ألف شرح مسلم، وهذا أمر عسير على غير مثله، ومع ذلك فقد كان يشتغل بالفترة نفسها بتأليف كتاب أو تتمة تأليف، فقد اعتاد أن يؤلف في آن واحد كتباً عدة، وهذا من فضل الله خصه الله وأمثاله به، وهذا من أسرار طاعة الله والإخلاص له في السر والعلن.

الروضة «واسمها روضة الطالبين»:

من الكتب الكبيرة المعتمدة في المذهب الشافعي «الروضة» اختصرها النووي من كتاب الإمام الرافعي «الشرح الكبير». ولقد أثنى على الروضة الأئمة، فقال الأذرعي[1]: «هي عمدة أتباع المذهب في هذه الأمصار، بل سار ذكرها في النواحي والأقطار، فصارت كتاب المذهب المطول، وإليها المفزع في النقل وعليها المعول، فإليها يلجأ الطالب النبيه، وعليها يعتمد الحاكم في أحكامه والمفتي في فتاويه، وما ذاك إلا لحسن النية وإخلاص الطوية». وقال شهاب الدين أحمد بن خفاجة الصفدي[2] ـ وكان من العلماء العاملين ـ : **رأيت رسول**

---

(١) السخاوي ٢٣ والأذرعي: هو أحمد بن حمدان بن أحمد أبو العباس شهاب الدين الأذرعي، علامة في الفقه الشافعي، ولد بأذرعات، وعني بشرح المنهاج للنووي، توفي سنة ٧٨٣ هـ.

(٢) السخاوي ٢٧، وأحمد هذا هو أحمد بن موسى بن خفاجة، فقيه شافعي كبير، كان يأكل من عمل يده، وشرح الأربعين النووية في مجلد، توفي سنة ٧٥٠ هـ.

الله ﷺ بمنامي، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في النووي؟ قال: نعم الرجل النووي، فقلت: صنف كتاباً وسماه الروضة فما تقول فيها؟ قال: هي الروضة كما سماها.

وقال العماد بن كثير: قد زاد فيها تصحيحات ودقائق واختيارات حسان. وكان فراغه من تأليفها في آخر نسخته الموقوفة بالمدرسة المحمودية في يوم الأحد ١٥ ربيع الأول سنة ٦٦٩ هـ.

ولقد عني فيها العلماء اختصاراً وتجريداً وشرحاً ونقداً ودفاعاً فممن اختصرها: القطب محمد بن عبد الصمد السنباطي(١) والنجم عبد الرحمن بن يوسف الأصفوني(٢)، والجمال محمد بن أحمد الشريشي(٣)، وفتح الدين محمد بن علي بن إسماعيل البستاني(٤)، والشرف ابن المقري اليماني في

(١) كان السنباطي فقيهاً كبيراً. تخرج به المصريون. توفي سنة ٧٢٢ هـ.
(٢) كان الأصفوني بارعاً في الفقه والفرائض وقرأ القراءات، يقول ابن حجر في الدرر الكامنة: وهو الذي اختصر الروضة، وهو مختصر جيد نفيس، توفي سنة ٧٥٠ هـ.
(٣) الشريشي فقيه شافعي كبير وحكم في دمشق يوماً واحداً ومرض، وتوفي سنة ٧٧٩ هـ.
(٤) في الضوء اللامع اللشائي: من كبار فقهاء الشافعية، شرح الحاوي واختصر الروضة، لم تعلم سنة وفاته ولعله جاوز سنة ٨٠٠ بقليل.

الروض وقد كثر تداوله، والشهاب ابن رسلان المقدسي، وغير هؤلاء كثيرون تجد معظمهم في السخاوي.

وممن أفرد زوائدها: المجد السنكلوني[1].

وكتب عليها الشيخ سراج الدين البلقيني[2]، وكذلك كتب ولده القاضي جلال الدين حواشي عليها. وممن شرحها أو شرح قطعاً منها الحافظ ابن حجر العسقلاني في آخرين ممن كتب عليها مضمومة مع الشرح الكبير للرافعي أصلها: كالأسنوي والأذرعي والزركشي[3]، وكذا من المتأخرين: فقيه طرابلس الشمس محمد بن يحيى بن أحمد بن زهرة[4].

أما من نقد «الروضة» ولكنه عذر النووي فهو الأذرعي، فقد قال بعد الثناء على كتاب الروضة ـ وقد تقدم ـ : غير أنه رحمه الله اختصرها من كتاب الإمام الرافعي رحمه الله من نسخ

---

(١) في الأصل: الزنكلوني، والأكثرون كما أثبتناه، وهو أبو بكر بن إسماعيل بن عبد العزيز السنكلوني، فقيه شافعي أصولي، توفي سنة ٧٤٠ هـ.

(٢) هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح الكناني البلقيني المصري الشافعي، مجتهد حافظ، توفي سنة ٨٠٥ هـ.

(٣) الزركشي: هو محمد بن بهادر بن عبدالله الزركشي، عالم بفقه الشافعية والأصول، توفي سنة ٧٩٤ هـ.

(٤) هو كما في الضوء اللامع: محمد بن يحيى بن دغرة بن زهرة، كان إماماً عالماً ديناً شيخ الشافعية في بلده، توفي سنة ٨٤٨ هـ.

فيها سقم، فجاء في مواضع منها خلل، فإنه اعتمد في اختصاره على نسخة الإمام الباذرائي وفيها سقم، واستعان عليها بنحوها فحصل بذلك نقص وخلل يخفى على المبتدي، ويشكل على المنتهي. . . إلى أن قال: واعلم ـ وفقني الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يتقيه حق تقاته ـ أني لم أقصد بما أشرت إليه الاعتراض على الشيخ، ولا التعقب لكلامه بالتوهم والإزراء، معاذ الله، وإنما أردت النصيحة له وللمسلمين، وإفادة المتعلمين، فلقد كان من أحرص الناس على ذلك، وبذل وسعه فيه، وإنما سبب ما اتفق له من ذلك ما أشرت إليه، ودللتك عليه، هذا مع استغراقه أكثر الأوقات بالطاعات والأوراد والأعمال الزكيات، ولو تأمل ذلك بعض التأمل لوضح لديه وبرهن عليه، ولكنه كان كالجواد المسرع في ميدانه.

وأقول: إن ما قاله الأذرعي فيه الإنصاف، وأما إعذاره له بأنه اختصر من نسخ فيها سقم، فحصل بذلك نقص وخلل، فهذا بعيد عن النووي كل البعد، لأنه ما اختصره إلا وهو يعلم ما دقَّ فيه وما ظهر، بل هو يكاد يحفظ في صدره رأي كل عالم من علماء الشافعية، ومَنْ هذا شأنه لا يعتذر عنه بهذا. والذي ينبغي أن يقال: إن النووي يكتب ما يكتب كالجواد المسرع في ميدانه كما قال الأذرعي، ثم يدعه مسودة إلى أن تأتيه فرصة فينظر فيه، ويدرك بقليل النظر ما حصل فيه من النقص أو الخفاء في حال استعجاله في تسويده، ولكن النووي ـ رحمه الله ـ عاجلته المنية

قبل أن يتم ذلك، ولما أدرك أنه لا يستطيع إعادة النظر فيه، وخشي أن ينتهي الأجل قبل ذلك، همَّ قبل وفاته بقليل أن يغسل «الروضة»[1] كما غسل ألف كراسة من تعليقاته، فقيل له: قد سارت بها الركبان، فقال: في نفسي منها أشياء. ومعنى ذلك أنه أدرك وهو يسوِّدها أن فيها بعض الخلل وسيرجع إليها إن شاء الله، ولكن مشيئة الله لم تمنحه الفرصة، فتوفي قبل أن يرجع إليها، وقبل أن يتم كثيراً مما ألف رحمه الله.

على أن بعض من نقده توهم أشياء والحقَّ فيها ما قاله النووي وهذا ما يأتي:

فممن كتب حواشي على «الروضة» أبو حفص عمر بن أبي الحرم ابن الكناني، وقد ولع بمناقشة الروضة. وجرد هذه الحواشي بعض أصحابه وليس فيها كبير طائل، بل غالبها تعنت ـ كما يقول ابن حجر[2] ـ وقد وقف التقي السبكي[3] على بعضها وأجاب عن كلامه. وكذلك أجاب عما كتب أحدهم عن الروضة ابنه التاج السبكي في طبقاته فمما قال: «لا يخفى على ذي بصيرة

---

(١) السخاوي (٢٤).

(٢) الدرر الكامنة ٣/ ١٦٢، وعمر هذا هو ابن أبي الحرم بن عبد الرحمن بن يونس، كان يقال: ما في زمانه أفقه منه، ولكنه كان كثير التعنت كثير الجدل، توفي سنة ٧٣٨ هـ.

(٣) هو علي بن عبد الكافي السبكي الأنصاري شيخ الإسلام في عصره، توفي سنة ٧٥٦ هـ.

أن لله تبارك وتعالى عنايةً بالنووي وبمصنفاته، وأستدل على ذلك بما يقع في ضمنه فوائد، حتى لا تخلو ترجمته عن الفوائد ـ أو العوائد ـ ، فتقول: ربما غيَّر لفظاً من ألفاظ الرافعي، إذا تأمله المتأمل استدركه عليه وقال: لم يف بالاختصار، ولا جاء بالمراد، ثم نجده عند التنقيب قد وافق الصواب ونطق بفصل الخطاب. وما يكون من ذلك عن قصد منه لا يعجب منه، بل المختصر ربما غيَّر كلام من يختصر كلامه لمثل ذلك وإنما العجب من تغيير يشهد العقل بأنه لم يقصد إليه، ثم وقع فيه على الصواب وله أمثلة»، ثم ذكر أمثلة من أرادها فلينظر الطبقات الكبرى[1].

ومن الجدير بالذكر أن النووي رحمه الله ألف على الروضة كتاب (دقائق الروضة) ولم يتمه، ووصل فيه إلى أثناء الصلاة ـ وهي نفيسة[2] ـ وسماها الإشارات لما وقع في الروضة من الأسماء واللغات.

قال تلميذه ابن العطار: ورأيت بخطه فيها ـ أي الروضة ـ أنه ابتدأ في تأليفها يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٦٦ هـ وختمها الأحد خامس عشر شهر ربيع الأول سنة تسع وستين وهي عمدة المذهب الآن.

---

(١) الجزء (٨/ ٣٩٨).

(٢) كما قال السخاوي (١٥).

المنهــــاج:

هذا الكتاب في الفقه من أكثر كتب النووي تداولاً بين العلماء والطلبة، اختصره مؤلفه من كتاب «المحرر» للرافعي، وله فيه تصحيحات واختيارات وكان فراغه من تأليفه يوم الخميس ١٩ رمضان سنة ٦٦٩[١]، يقول ابن العطار: وقد حفظه بعد موته خلق كثير[٢]. وقد ذكره ابن العطار في التحفة في المؤلفات التي لم تكمل وهذا سبق قلم من الناسخ، والصواب أنها كملت.

وقال التقي السبكي في أول القطعة التي شرحها[٣]: هذا الكتاب في هذا الوقت ـ في وقت السبكي ـ هو عمدة الطلبة، وكثير من الفقهاء في معرفة المذهب.

وقال قاضي صفد: وهو عظيم النفع. وقال ابن العطار[٤] ـ تلميذ النووي ـ : وقال لي شيخنا العلامة حجة العرب شيخ النحاة أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك الجياني ـ النحوي الشهير صاحب الألفية ـ وذكر المنهاج لي بعد أن كان وقف

---

(١) السخاوي (١٣).

(٢) تحفة الطالبين ١١/أ.

(٣) السخاوي (١٧).

(٤) تحفة الطالين ١١/ب.

عليه: «والله لو استقبلت من عمري ما استدبرت لحفظته»، وأثنى على حسن اختصاره، وعذوبة ألفاظه. وقد امتدح المنهاج ومؤلفه ثلة من الشعراء منهم البرهان الجعبري[1] بقوله:

لله در إمـــــــام زاهـــــــدٍ ورع
أبـدى لنـا مـن فتـاوى الفقـه منهـاجـا
ألفاظــه كعقـــود الـــدر ســـاطعـــةٌ
علـى الـرياض تـزيـد الحسـن إبهـاجـا
فـاسلكـه تحـظ بـأحكـام تُنيـف علـى
علــم المحــرر تــأويبــاً، وإدلاجــا
أحيــى لنــا الــديــن(محييــه) فــألبســه
بمــا تنــوع مـــن تصنيفــه تـــاجــا
بـــوّاه ربــك فـــي الفـــردوس منــزلــة
مـع الـذي نـال فـي مســراه معـراجـا

ومنهم الشمس النواجي[2] بقوله:

يمِّــم حِمــى النــووي ولُــذ بعلــومــه
وأنـــخ بـــروضتـــه تفـــز بحقـــائقــه

(١) هو إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الجعبري، عالم بالقراءات من فقهاء الشافعية، له نظم ونثر، توفي سنة ٧٣٢ هـ.
(٢) وهو محمد بن حسن بن علي النواجي، عالم بالأدب له شعر حسن، توفي سنة ٨٥٩ هـ.

واصرف لها ساعات وقتك ترتقي
درجاً إلى منهاجه ودقائقه[1]

لقد اهتم العلماء والطلبة بهذا الكتاب الفقهي حتى كثر الشارحون له والمعلقون، فممن شرحه من الأئمة: البهاء أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن عوام السكندري[2] والد المتقي، والكمال أبو المعالي محمد بن علي بن عبد الواحد الدمشقي[3]، والبرهان إبراهيم بن التاج عبد الرحمن بن إبراهيم الفركاح[4]، والشيخ نور الدين فرج بن محمد بن أحمد الأردبيلي[5]، كتب منه ست مجلدات، والشيخ تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي سماه (الابتهاج) وصل فيه إلى الطلاق، وشرع ولده البهاء أحمد[6] في إكماله، فمات قبل أن يتم أيضاً، والشيخ

(١) السخاوي (١٦ ـ ١٧).
(٢) كما في الدرر الكامنة، وأحمد بن أبي بكر هذا من علماء الشافعية، أسواني الأصل، توفي سنة ٧٢٠ هـ.
(٣) عالم بالقراءات والمذهب الشافعي، وكان واعظاً بارعاً وفقيهاً نحوياً شاعراً كما قال ابن كثير وابن حجر، توفي سنة ٧٦٣ هـ.
(٤) إبراهيم هذا هو ابن شيخ النووي تاج الدين الفركاح الفزاري، الذي كان بينه وبين النووي شيء سيأتي توضيحه والابن كأبيه من علماء الشافعية، توفي سنة ٧٢٩ هـ.
(٥) كان فقيهاً مشهوراً: يقول ابن حجر: وعلق على المنهاج شرحاً حافلاً في ست مجلدات ما له نظير في التحقيق، توفي سنة ٧٤٩ هـ.
(٦) هو أحمد بن علي بن عبد الكافي بهاء الدين من علماء الشافعية، توفي سنة ٧٦٣ هـ.

جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم بن الحسن الأسنوي وما أحسنه!! لم يكمله ووصل فيه إلى المساقاة. وممن شرحه من المتأخرين جلال الدين المحلي[1] وهو شرح متداول. وهناك من الشراح والمعلقين كثيرون غير من ذكرتهم، فمن أراد أن يستقصيهم بشكل تقريبي فليرجع إلى ترجمة النووي للسخاوي ١٧ ـ ٢٠.

وهناك من نظم المنهاج[2] وهو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الموصلي[3].

رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين:

قد جمع من الحديث النبوي الشريف كتب كثيرة في الوعظ والاعتبار، ولكن واحداً منها لم يبلغ من الانتشار والثقة ما بلغه رياض الصالحين، فهو كتاب جليل كثير الخير، جم النفع والبركة جمع فيه مؤلفه ما ذكره في المقدمة إذ قال: «فرأيت أن أجمع مختصراً من الأحاديث الصحيحة، مشتملاً على ما يكون طريقاً لصاحبه إلى الآخرة، ومحصلاً لآدابه الباطنة والظاهرة،

---

(١) وهو محمد بن أحمد بن محمد، عالم كبير، أصولي مفسر كان مهيباً، صداعاً بالحق، توفي سنة ٨٦٤ هـ.

(٢) الدارس ٩٤، الأعلام ٧/ ٢٦٩.

(٣) ابن الموصلي أديب عالم بالفقه، ولد في بعلبك وتعلم بدمشق، وتوفي بطرابلس سنة ٧٧٤ هـ.

جامعاً للترغيب والترهيب، وسائر أنواع آداب السالكين من أحاديث الزهد، ورياضات النفوس، وتهذيب الأخلاق، وطهارات القلوب وعلاجها، وصيانة الجوارح وعلاجها وإزالة اعوجاجها، وغير ذلك من مقاصد العارفين. وألتزم فيها ألا أذكر إلا حديثاً صحيحاً من الواضحات، مضافاً إلى الكتب الصحيحة المشهورات، وأصدِّر الأبواب من القرآن العزيز بآيات كريمات، وأوشح ما يحتاج إلى ضبط أو شرح معنى خفي بنفائس من التنبيهات.. ».

ولم يشرح هذا الكتاب أحد بعد النووي، حتى جاء عالم كبير الفضل ولد آخر القرن العاشر، هو العلامة محمد بن علي[1] ابن محمد علاّن الصدِّيقي الشافعي، فشرحه شرحاً حسناً في أربع مجلدات فيها علم كثير، وسماه «دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين» ومما قاله في مقدمته: وبعد، فهذا ما دعت إليه الحاجة من وضع تعليق لطيف على نهج منيف على كتاب رياض الصالحين إلى أن قال: ولم أقف على كتابة عليه تكون كالدليل للسالك إليه، إلى آخر ما قال.

الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار:

لم يحظ كتاب في الأذكار عند عامة الناس وخاصتهم،

---

(١) في خلاصة الأثر: محمد علي بن محمد علان، عالم عصره ومجدده، توفي سنة ١٠٥٧ هـ.

ما حظي به كتاب النووي، فهو كتاب نفيس جليل، ذكر فيه المؤلف عمل اليوم والليلة، وزاد عليهما أذكاراً لمناسبات شتى، مع كثير من الأحكام المتناسبة مع الذكر. يقول النووي رحمه الله في مقدمته: «وقد صنف العلماء رضي الله عنهم في عمل اليوم والليلة والدعوات والأذكار كتباً كثيرة معلومة عند العارفين، ولكنها مطوَّلة بالأسانيد والتكرير، فضعفت عنها همم الطالبين، فقصدت تسهيل ذلك على الراغبين، فشرعت في جمع هذا الكتاب مختصراً مقاصد ما ذكرته تقريباً للمعتنين . . . إلى أن قال: وأذكر إن شاء الله تعالى بدلاً من الأسانيد ما هو أهم منها، وهو بيان صحيح الأحاديث وحسنها وضعيفها ومنكرها، فإنه مما يفتقر إلى معرفته جميع الناس إلا النادر من المحدِّثين، وهذا أهم مايجب الاعتناء به . . إلى أن قال: وأضم إليه إن شاء الله الكريم جملاً من النفائس: من علم الحديث ودقائق الفقه، ومهمات القواعد، ورياضات النفوس، والآداب التي تتأكد معرفتها على السالكين وأذكر جميع ما أذكره موضحاً بحديث يسهل فهمه على العوام والمتفقهين . . إلخ ما قال». وكان فراغه من تأليف الأذكار في المحرم سنة سبع وستين وستمائة، قال رحمه الله: سوى أحرف ألحقها، وقال: وأجزت روايته لجميع المسلمين[1].

---

(١) السخاوي (١٢).

وما سمعت أن أحداً شرحها إلا العلامة ابن علان الذي شرح كتاب «رياض الصالحين».

التبيان في آداب حملة القرآن:

وهو كتاب صغير ويستغنى به عن الكتب الكبيرة، ألفه النووي رحمه الله لأهل دمشق، وقد كانت ـ كما يقول النووي ـ لهم عناية بالقرآن الكريم، يقول السخاوي[1]: وهو كتاب نفيس لا يستغنى عنه، خصوصاً القارىء والمقرىء. ومما قاله النووي في مقدمة كتابه: «ورأيت أهل بلدتنا دمشق ـ حماها الله تعالى وصانها وسائر بلاد الإسلام ـ مكثرين من الاعتناء بتلاوة القرآن العزيز، تعلماً وتعليماً، وعرضاً ودراسة، في جماعات وفرادى، مجتهدين في ذلك بالليالي والأيام، زادهم الله حرصاً عليه، وعلى جميع أنواع الطاعات، مريدين وجه الله ذي الجلال والإكرام، فدعاني ذلك إلى جمع مختصر في آداب حملته وأوصاف حفاظه وطلبته، فقد أوجب الله النصح لكتابه، ومن النصيحة له بيان آداب حملته وطلابه، وإرشادهم إليها وتنبيههم عليها، وأوثر فيه الاختصار، وأحاذر فيه التطويل والإكثار، وأقتصر في كل باب على طرف من أطرافه، وأرمز من كل ضرب من آدابه إلى بعض أصنافه... إلى أن قال: ثم ما وقع من غريب الأسماء واللغات في الأبواب أفرده بالشرح والضبط

---

(١) ترجمة النووي (١٢).

الوجيز الواضح على ترتيب وقوعه، في باب في آخر الكتاب، ليكمل انتفاع صاحبه ويزول الشك عن طالبه، ويندرج في ضمن ذلك، وفي خلال الأبواب جمل من القواعد، ونفائس من مهمات الفوائد . . الخ ما قال».

التحرير في ألفاظ التنبيه:

من أجود كتب اللغة التي تشرح ما في كتاب التنبيه من ألفاظ لغوية أو مصطلحات فقهية، شبيهة بكتاب المصباح المنير للفيومي، وقد قدمت الحديث عنه في علم النووي باللغة.

يقول ابن الملقن(١) عن التحرير: وما أكثر فوائده، وقال قاضي صفد: وما أكثر فوائده، وما أعم نفعه، لا يستغني طالب علم عنه.

العمدة في تصحيح التنبيه:

هذا الكتاب من أقدم ما ألف النووي، وموضوعه ملاحظات رآها في التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، قال ابن الملقن: وما أحسنه!! لكنه أهمل قدره.

وقال غيره: إنه من قديم ما صنف، فلا يعتمد على ما فيه مخالفاً الحديث من كتبه.

---

(١) هو عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، سراج الدين، المعروف بابن الملقن، من أكابر العلماء بالحديث والفقه وتاريخ الرجال، توفي سنة ٨٠٤ هـ.

الإيضاح في المناسك:

للنوي ـ رحمه الله ـ مناسك كثيرة نحو ستة كتب، ومنها منسك خاص بالنسوان، إلا أن الإيضاح فيما يظهر أشملها لكل ما يحتاجه الحاج مع فوائد كثيرة قيمة، يقول رحمه الله في بعض خطبة الكتاب: فمن أهم الأمور بيان أحكامه وإيضاح مناسكه وأقسامه، وذكر مصححاته ومفسداته، وواجباته وآدابه ومسنوناته، وسوابقه ولواحقه، وظواهره ودقائقه، وبيان الحرم ومكة والمسجد والكعبة وما يتعلق بهما من الأحكام وما تميزت به عن سائر بلاد الإسلام، وقد جمعت هذا الكتاب مستوعباً لجميع مقاصدها، مستوفياً لكل ما يحتاج إليه من أصولها وفروعها ومعاقدها، وضمنته من النفائس ما لاينبغي لطالب الحج أن تفوته معرفته . . الخ ما قال.

وقد شرح هذه المناسك: علي بن عبدالله بن أحمد الحسني المتوفى سنة ٩١١ هـ، وعلق عليه حاشية كبيرة مفيدة الشهاب أحمد بن حجر المكي الهيتمي[١].

الإرشاد والتقريب:

وكلاهما في مصطلح الحديث. اختصر النووي كتاب

(١) وهو أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري، من كبار فقهاء الشافعية في عصره، ونسبته الهيتمي إلى محلة أبي الهيتم من إقليم الغربية بمصر، توفي سنة ٩٧٤ هـ.

الإرشاد من كتاب ابن الصلاح، ثم اختصر الإرشاد بكتاب سماه «التقريب والتيسير في معرفة سنن البشير النذير».

يقول المؤلف رحمه الله في مقدمته:

وهذا كتاب اختصرته من كتاب الإرشاد الذي اختصرته من «علوم الحديث» للشيخ الإمام الحافظ المحقق المدقق أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن المعروف بابن الصلاح رضي الله عنه، أبالغ فيه في الاختصار إن شاء الله تعالى من غير إخلال بالمقصود.. إلخ. هذا وقد انتفع الناس بهذا المختصر من زمن مؤلفه إلى يومنا هذا انتفاعاً كبيراً.

وقد عني بشرحه وتبيين مقاصده وتوسيعه الإمام السيوطي[1] رحمه الله بكتاب «تدريب الراوي»، ومما قاله في مقدمته:

فرأيت كتاب التقريب والتيسير لشيخ الإسلام الحافظ ـ ولي الله تعالى ـ أبي زكريا النواوي كتاباً جلَّ نفعه، وعلا قدره، وكثرت فوائده وغزرت للطالبين موائده.

الأربعين النووية:

كتاب صغير، جمع فيه مؤلفه أربعين حديثاً أو اثنين

---

(١) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين السيوطي، إمام حافظ مؤرخ نحوي، أكثر جداً من التصانيف، توفي سنة ٩١١ هـ.

وأربعين مما يحتاجه كل مسلم، بل هي أكثر مداولة من غيرها في كتب الفقه والوعظ والزهد، وانتفع الناس كثيراً بهذا الكتاب وما يزالون ، وما برح العلماء ينصحون لطلبتهم بحفظه وفهمه، وهو أول الخطوات للاطلاع على حديث رسول الله ﷺ.

بستان العارفين:

كتاب رقائق، فيه من الخير وكثرة الفوائد ـ مع صغره ـ الشيء الكثير، وهو صورة كاملة عن مؤلفه: ففيه الزهد، والإخلاص، ووصف حقارة الدنيا، وهو متداول معروف، سار فيه على نهج الصفوة المباركة من الصوفية، مع الصدق في القول والعمل.

مناقب الشافعي:

اختصر فيها كتاب البيهقي وهو في مجلدين، اختصره النووي في مجلد واحد.

مختصر أسد الغابة:

نبه عليه النووي في مصنفه التقريب.

الفتاوى المسماة «بالمسائل المنثورة»:

جمع بعضها تلميذه الملازم له علاء الدين ابن العطار، وهي قيمة وفيها علم كثير، وله فتاوى أخر رتبها بخطه مما لم يذكر في فتاويه.

أدب المفتي والمستفتي:

وهو كتاب نفيس كما قال السخاوي[1]، وقد سبقه لتصنيف هذا أبو عمرو بن الصلاح، ومن قبله: أبو القاسم الصيمري[2].

مسائل تخميس الغنائم:

وهذا كتاب ألفه في النزاع بينه وبين شيخه الفركاح في مسألة تخميس الجواري في الحرب[3]، وستقرأ تفصيل هذا الخلاف في نهاية هذا الفصل.

مختصر التذنيب:

التذنيب للرافعي سماه المنتخب. وقد أسقط منه في آخر الفصل السادس أوراقاً تزيد على الكراس فلم يختصرها.

دقائق الروضة:

وصل فيها إلى أثناء الصلاة وهي نفيسة، سماها: الإشارات لما وقع في الروضة من الأسماء واللغات، وهي ـ على ما يقول السخاوي ـ نفيسة.

---

(١) السخاوي ١٥ ـ ١٦.

(٢) وهو عبد الواحد بن الحسين أبو القاسم الصيمري، أحد أئمة المذهب الشافعي، توفي سنة ٣٣٦ هـ.

(٣) السخاوي ٨ ـ ٩ و ١٣.

تحفة طلاب الفضائل:

هذا كتاب ذكر فيه من التفسير والحديث والفقه واللغة، وضوابط، ومسائل من العربية، وغير ذلك، وهو جليل في معناه وأفرد من شرح المهذب.

الترخيص في الإكرام والقيام:

وهي عبارة عن رسالة لطيفة في القيام وصوره وأحكامه.

مختصر آداب الاستسقاء ورؤوس المسائل:

كتابان صغيران جيدان.

* * *

هذه هي الكتب التي أكملها مؤلفها النووي على اليقين، وقد يكون إكمال بعضها على غالب الظن.

● **وهذا أوان التحدث عما لم يكمله النووي من تآليفه في حياته على ما كتبه ابن العطار تلميذه في ترجمته في كتاب تحفة** الطالبين، وهي كما يلي:

المجموع، تهذيب الأسماء واللغات، قطعة من شرح الوسيط، قطعة من شرح البخاري، قطعة يسيرة من شرح سنن أبي داود، قطعة في الإملاء على حديث الأعمال بالنيات، كتاب الأمالي، الخلاصة في أحاديث الأحكام، قطعة مسوَّدة من

طبقات الفقهاء، قطعة من التحقيق في الفقه وصل فيه إلى باب صلاة المسافر، ومسوَّدات كثيرة. إلى هنا قاله ابن العطار[1].

وزاد السخاوي ما يلي: دقائق المنهاج ودقائق الروضة، تحفة الطالب النبيه، جامع السنة، مهمات الأحكام، الأصول والضوابط.

وسنتحدث إن شاء الله عنها جميعها كتاباً كتاباً فيما يلي:

المجموع شرح المهذب:

كان من حق هذا الكتاب العظيم أن نقدم الحديث عنه في أول الحديث عن كتبه ولكنه لم يكمل.

وإذا أردنا أن نعطي هذا الكتاب بعض حقه، فلا أقل من أن ننعته بأنه: أعظم كتاب في المذهب الشافعي، ولو أنه كمل على الطريقة التي بدأ فيها مؤلفه رحمه الله لكان ـ بغير جدال ـ أعظم كتاب في الفقه مطلقاً، إلا ما ألفه أئمة المذاهب. فإذا أراد عالم الكشف عن مسألة، وقرأ ما كتبه المؤلف من تحقيقها والدليل عليها وتثبيت الدليل أو تضعيفه، وما قالته بعض المذاهب فيها، وأدلتهم عليها ومناقشتها، فإنه يخلص إلى نتيجة فيها محررة ناضجة، يرتاح إليها المرء فكراً وعقيدة. هذا عدا ما يشتمل عليه الكتاب من فوائد نادرة في اللغة والحديث والأصول وغير ذلك،

---

(١) تحفة الطالبين ١١/أ.

ومن أراد التوسع في معرفة محتويات الكتاب فليقرأ مقدمة النووي على الكتاب. وهاك طائفة من شهادات العلماء في هذا الكتاب:

قال الذهبي: «إنه في غاية الحسن والجودة» وقال العماد ابن كثير في طبقات الشافعية له: «سلك فيه ـ أي في المجموع ـ طريقة وسطة، حسنة، مهذبة، سهلة، جامعة لأشتات الفضائل وعيون المسائل، ومجامع الأوائل، ومذاهب العلماء ومفردات الفقهاء، وتحرير الألفاظ، ومسالك الأئمة الحفاظ، وبيان صحة الحديث من سقمه، ومشهوره من عكسه. وبالجملة فهو كتاب ما رأيت على منواله لأحد من المتقدمين، ولا حذا على مثاله متأخر من المصنفين».

وقال العثماني قاضي صفد: إنه لا نظير له، لم يصنف مثله، ولكنه ما أكمله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إذ لو أكمله ما احتيج إلى غيره، وبه عرف قدره واشتهر فضله.

وكتاب المجموع هذا هو «شرح للمهذب» والمهذب للإمام أبي إسحاق الشيرازي شيخ علماء عصره، ألفه على طريقة ذكر الدليل مع كل مسألة مع استيعابه للمذهب تقريباً، فكان دور النووي في شرحه ما قدمنا بعضه، ولكنه مع الأسف الشديد هلك قبل أن يتمه، ولكنه وصل فيه إلى أثناء كتاب الربا في تسع مجلدات، ثم جاء التقي السبكي ـ من كبار علماء الشافعية في

القرن الثامن ـ فحاول أن يتمه ولكنه أدركته منيته حين أتم منه ثلاث مجلدات فقط. وشرح السبكي ـ مع الفرق الواضح بينه وبين شرح النووي ـ جامع متين نافع، وقد ذكر في مقدمته عذره بعجزه عن اللحاق بالنووي، فقال: «أما بعد، فقد رغب إليَّ بعض الأصحاب والأحباب في أن أكمل شرح المهذب للشيخ الإمام العلامة علم الزهاد، وقدوة العباد، واحد عصره، وفريد دهره، محيي علوم الأولين، وممهد سنن الصالحين، أبي زكريا النووي، رحمه الله تعالى، وطالت رغبته إليَّ، وكثر إلحاحه عليَّ، وأنا في ذلك أُقدِّم رجلاً وأؤخر أخرى، وأستهون الخطب وأراه شيئاً إمراً، وهو في ذلك لا يقبل عذراً.

وأقول: قد يكون تعرضي لذلك مع تقعدي عن مقام هذا الشرح إساءة إليه وجناية مني عليه، وأنَّى أنهض بما نهض به، وقد أسعف بالتأييد، وساعدته المقادير، فقربت منه كل بعيد.

ولا شك أن ذلك يحتاج بعد الأهلية إلى ثلاثة أشياء: (أحدها): فراغ البال واتساع الزمان، وقد أوتي رحمه الله تعالى من ذلك الحظ الأوفى بحيث لم يكن له شاغل عن ذلك من نفس ولا أهل. (والثاني): جمع الكتب التي يستعان بها على النظر والاطلاع على كلام العلماء، وكان رحمه الله قد حصل له من ذلك حظ وافر، لسهولة ذلك في بلده في ذلك الوقت. (والثالث): حسن النية وكثرة الورع والزهد والأعمال الصالحة التي أشرقت أنوارها وكان رحمه الله قد اكتال من ذلك بالمكيال

الأوفى، فمن يكون اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث، أنَّى يضاهيه أو يدانيه من ليس فيه واحدة منها؟ فنسأل الله تعالى أن يحسن نياتنا وأن يمدنا بمعونته وعونه. . . .»

تهذيب الأسماء واللغات:

سبق وتحدثنا عن هذا الكتاب في علم النووي باللغة، ويمتاز هذا الكتاب بالضبط والتحقيق والتحري عن الصواب، وهو كاسمه، ذكر الأسماء وضبطها وترجم أصحابها، واللغات صحيحها وضعيفها ومُوَلَّدها، وقد توفي عنه ولم يتمه ولكنه ترك قطعة كبيرة منه، ثم إنه تركه مسودة فبيضه تلميذه المِزي رحمهما الله تعالى. ويقول النووي في المجموع[1]: وقد بينت ذلك في تهذيب الأسماء واللغات بياناً حسناً، وهو كتاب جليل لا يستغني طالب علم من العلوم كلها عن مثله. قال قاضي صفد: وما أكثر فوائده وما أعم نفعه، لا يستغني طالب علم عنه.

شرح الوسيط:

الوسيط: للإمام الغزالي هو من الكتب المعتمدة في المذهب الشافعي، فشرح منه النووي رحمه الله قطعة جيدة.

شرح البخاري:

يقول النووي في مقدمة شرح صحيح البخاري بعد كلام:

---

(١) المجموع ١/ ١١٢.

«وأما صحيح البخاري فها أنا أشرع في جمع كتاب في شرحه، متوسط بين المختصرات والمبسوطات لا من المختصرات المخلات ولا من المبسوطات المملات، ولولا ضعف الهمم وقلة الراغبين في المبسوط لبلغت به ما يزيد على مائة من المجلدات مع اجتناب التكرار والزيادات العاطلات، بل ذلك لكثرة فوائده وعظم عوائده الخفيات والبارزات، لكنني أقتصر على التوسط، وأحرص على ترك الإطالات، وأوثر الاختصار في كثير من الحالات. فأذكر إن شاء الله تعالى جملاً من علومه الزاهرات من أحكام الأصول والفروع والآداب والإشارات الزهديات، وبيان من أصول القواعد الشرعيات، وإيضاح معاني الألفاظ اللغوية، وأسماء الرجال وضبط المشكلات، وأسماء ذوي الكنى وأسماء ذوي الآباء والمبهمات، والتنبيه على لطيفة من حال بعض الرواة وغيرهم... إلخ». ولكنه رحمه الله أدركه الموت قبل أن يدرك أمله في إتمامه، ولم يشرح إلا أوله، ووصل فيه إلى باب قول النبي ﷺ: الدين النصيحة وأورد فيه حديثين وشرحهما وقضى إلى ربه سبحانه.

شرح أبي داود:

شرح منه قطعة، وصل فيها إلى أثناء الوضوء، وسماه: «الإيجاز» يقول السخاوي[1]: وسمعت أن زاهد عصره الشهاب

(١) ترجمة النووي ١٢.

ابن رسلان أودعها برمتها في شرحه الذي كتبه على السنن وبنى عليها[1].

الإملاء على حديث الأعمال بالنيات:

قطعة من الإملاء على حديث الأعمال بالنيات.

كتاب الأمالي:

سمى بعضهم في تصانيفه «كتاب الأمالي» في الحديث، في أوراق، وقالوا: إنه مهم نفيس صنفه قرب موته. يقول السخاوي: فلا أدري أهو الإملاء أو غيره[2].

الخلاصة في أحاديث الأحكام:

وصل فيها إلى أثناء الزكاة، قال ابن الملقن[3]: رأيتها بخطه ولو كملت كانت في بابها عديمة النظير، وقال غيره: إنه لا يستغني المحدث عنها، خصوصاً الفقيه، وهذه الخلاصة بخط المؤلف في كتب أوقاف الجمالية.

طبقات الفقهاء:

اختصر هذا الكتاب من كتاب ابن الصلاح، وزاد عليه

---

(١) هذا كلام فيه بعض الشك، فما رأيت أحداً نسب له شرحاً لسنن أبي داود.
(٢) السخاوي ١٢.
(٣) سبقت ترجمته في صفحة ١٧٦.

أسماء نبه عليها في ذيل كتابه، وكان ينبغي ذكر هذا الكتاب فيما أكمله من كتبه وهو الأرجح، بدليل أن السخاوي قال: وزاد عليه أسماء نبه عليها في ذيل كتابه، ولا يصل المؤلف إلى الذيل ويكتب فيه إلا وقد أتم الكتاب، لكن ابن العطار تلميذ النووي عده في جملة الكتب التي لم يتم تأليفها. ومات النووي ـ رحمه الله ـ وكتابه هذا مسودة وبيضه الحافظ الجمال المزي.

التحقيق:

في الفقه، وصل فيه إلى أثناء باب صلاة المسافر. قال السخاوي: هو ـ كما قال ابن الملقن ـ نفيس، قال ابن الملقن: وكأنه مختصر شرح المهذب، وقال غيره: إنه ذكر فيه مسائل كثيرة محضة، وقواعد وضوابط لم يذكرها في الروضة.

تحفة الطالب النبيه:

يقول السخاوي: وهو غير النُبَذ الذي رأيته في مجلد فإنه شرح فيه مواضع من جميع كتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، ولم يتمه، وصل فيه إلى أثناء باب الحيض وهو من أوائل ما صنف[1].

جامع السنة: شرع في أوائله، وكتب منه دون كراسة.

---

(١) تحفة الطالبين ١١/أ.

مهمات الأحكام:

قال بعضهم: هو قريب من التحقيق في كثرة الأحكام، لكنه لم يذكر فيه خلافاً، وصل فيه إلى أثناء طهارة البدن والثوب.

الأصول والضوابط:

هي أوراق لطيفة تشتمل على شيء من قواعد الفقه، وضوابط لذكر العقود اللازمة والجائزة، وما هو تقريب أو تحديد ونحو ذلك[1].

● ● ●

وزاد مصنف «هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنِّفين» من مؤلفات النووي ما يلي:

الإشارات في بيان الأسماء المهمات في متون الأسانيد، تحفة الوالد ورغبة الرائد، خلاصة الأحكام في مهمات السنن وقواعد الإسلام، روح المسائل في الفروع، عيون المسائل المهمة، غيث النفع في القراءات السبع، المبهم من حروف المعجم، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان.

---

(١) السخاوي ١٥.

هذا ما استطعنا جمعه مما ألفه أو بدأ بتأليفه، أو سار بتأليفه شوطاً يذكر، وقد تركنا ذكر ما بدأ به في صفحات قليلة، على أنه ـ رحمه الله ـ غسل كثيراً من مؤلفاته، ولم يبقِ إلا ما قيل له فيه: إن هذا مما سارت به الركبان، مخافة عدم الإخلاص في التأليف، وبعضها كتبها مسودة ولم يتح له الوقت لإعادة النظر فيها.

يقول ابن العطار تلميذه[1]: ولقد أمرني مرة ببيع كراريس ـ نحو ألف كراس ـ بخطه، وأمرني بأن أقف على غسلها في الوراقة، وخوفني إن خالفت أمره في ذلك، فما أمكنني إلا طاعته وإلى الآن في قلبي منها حسرة.

* * *

---

(١) تحفة الطالبين ١١/ب.

تلاميذُه

يقول تلميذه ابن العطار[1]: وسمع منه خلق كثير من العلماء والحفاظ والصدور والرؤساء، وتخرج به خلق كثير من الفقهاء، وسار علمه وفتاويه في الآفاق . . . الخ ما قال.

ودونك بعضاً من تلاميذه:

منهم: خادمه العلامة علاء الدين أبو الحسن علي بن إبراهيم بن داود الدمشقي، عرف بابن العطار، الذي كان لشدة ملازمته له وتحققه به يقال له «مختصر النووي».

ويقول ابن العطار[2]: وكان رحمه الله رفيقاً بي، شفيقاً علي، لا يمكِّن أحداً من خدمته غيري، على جهد مني في طلب ذلك منه، مع مراقبته لي رضي الله عنه في حركاتي وسكناتي، ولطفه بي في جميع ذلك، وتواضعه معي في جميع الحالات، وتأديبه لي في كل شيء حتى الخطرات، وأعجز عن حصر ذلك.

---

(١) تحفة الطالبين ٩ / أ.

(٢) المرجع السابق ٥ / ب.

وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ضبطاً وإتقاناً، وأذن لي رضي الله عنه في إصلاح ما يقع لي من تصانيفه، فأصلحت بحضرته أشياء فكتبه بخطه وأقرني عليه، ودفع إليَّ ورقة بعدة الكتب التي كانت يكتب منها ويصنف بخطه، وقال لي: إذا انتقلت إلى الله تعالى، فأتمم شرح المهذب من هذه الكتب، فلم يقدَّر ذلك لي. وكانت مدة صحبتي له مقتصراً عليه دون غيره، من أول سنة سبعين وستمائة وقبلها بيسير إلى حين وفاته ـ أي نحو ست سنين ـ .

وممن أخذ عنه: الصدر الرئيس الفاضل أبو العباس أحمد ابن إبراهيم بن مصعب، قرأ عليه قطعة من المنهاج.

والشمس محمد بن أبي بكر بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن النقيب، وهو آخر من كان من أعيان أصحاب النووي.

والبدر محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة.

والشهاب محمد بن عبد الخالق بن عثمان بن مزهر الأنصاري الدمشقي المقري.

وشهاب الدين أحمد بن محمد بن عباس بن جعوان.

والفقيه المقري أبو العباس أحمد الضرير الواسطي الملقب بالخلال.

والنجم إسماعيل بن إبراهيم بن سالم بن الخباز.

والشيخ الناسك جبريل الكردي.

وأمين الدين سالم بن أبي الدر.

والقاضي جمال الدين سليمان بن عمر بن سالم الزرعي.

والقاضي صدر الدين سليمان بن هلال الجعفري، خطيب داريا.

وأبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي المقدسي.

والعلاء علي بن أيوب بن منصور المقدسي الذي نسخ المنهاج بخطه، وحرره ضبطاً وإتقاناً وهو بخطه في المحمودية.

ومحيي الدين أبو زكريا يحيي بن الفاضل جمال الدين إسحاق بن خليل.

وعبد الرحيم بن محمد بن يوسف السمهودي الخطيب الأديب تفقه ببلده، ودخل دمشق فأخذ بها عن الشيخ محيي الدين النووي

والقاضي ضياء الدين علي بن سليم.

وشمس الدين البيطار المعبر.

وشهاب الدين الإربدي.

وعبدالله بن محمد بن علي، قال النووي عنه: وهو من فضلاء أصحابنا المتأخرين.

وشهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير والد المحدث

المؤرخ المشهور بابن كثير[1].

من أخذ عنه بالإجازة:

هناك من العلماء من أخذ عن النووي بالإجازة، ولا تغني الإجازة عن التلقي، وإنما يعمد إليها غالباً من يمنعه مانع عن التلقي، وليست الإجازة عند كثير من العلماء مما يُعتد به، يقول السخاوي: ولست تبعاً لشيخي أحب العمل بها، وفيما تحملناه ـ ولله الحمد ـ غنية عن التوسع فيها[2].

فممن أخذ عن النووي بالإجازة: الشرف محمد بن محمد محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الحزامي السكندري أخو التاج ابن عطاء الله (صاحب الحكم).

وأبو عبدالله محمد بن عبد الكريم بن أبي عبدالله المخيلي، وكلاهما عن النووي إجازة عامة. وأجاز أيضاً: لجمال الدين بن العطار، ولأبي نعيم أحمد بن التقي عبيد الأسعردي، ولأبي العباس أحمد بن كشتغدي بن عبدالله، ولأبي بكر بن قاسم ابن

---

(١) استخلصنا أسماء تلاميذه من ترجمة السخاوي، الدرر الكامنة، التذكرة، طبقات الشافعية، الدارس، تحفة الطالبين مصور.

هذا وقد ترجمنا شيوخ النووي ومن ورد اسمه عرضاً، والنية ألا نترجم رجال السند ولا تلاميذه، وأكثرهم مترجم في الطبقات الكبرى الجزء التاسع الطبعة الجديدة أو الدرر الكامنة.

(٢) ترجمة النووي للسخاوي ٣٣.

أبي بكر الرحبي، وللسيف أبي بكر بن محمد بن يحيى بن سنقد المعالي، وللشمس أبي عبدالله محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حيدر بن القماح، ولأبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أبي البركات النعماني، ولناصر الدين محمد بن كشتغدي أخي الماضي، وللصدر أبي الفتح محمد بن محمد بن إبراهيم الميدومي[1].

هذا وقد أجاز رواية شرح مسلم لجميع المسلمين[2].

اسطورة قراءة الجن على النووي:

حكى العلامة الفقيه الشرف أبو زكريا المناوي رحمه الله، عن الوالي أبي زرعة العراقي[3] مذاكرة أنه بلغه: أن الجان كانت تقرأ عليه، وأن بعض طلبته بينما هو عنده في خلوته إذ دخل عليه ثعبان ففزع الطالب فأخذ الشيخ في تسكين روعه، وعرفه بأنه من طلبة العلم من الجان، وأنه قال له: أما نهيتك عن التزيي بهذا، وأنه آخى بينهما.

وعندما أراد الجني التوجه لمحلة ببغداد أو العراق، سأل الطالب الشيخ الإذن له في التوجه معه للتفرج ببلاده، وأن الشيخ

---

(١) ترجمة النووي ٣٠ ـ ٣١ ـ ٣٢.
(٢) مفتاح السعادة ١/ ٣٩٨.
(٣) هو أحمد بن الحافظ الكبير عبد الرحيم بن الحسين، الحافظ الإمام الفقيه الأصولي، أبو زرعة، توفي سنة ٨٢٦ هـ.

أذن له في ذلك، ووصاه به، وأنه تزيى في صورة بعير، وأمر الإنسي أن يركبه، وقال له: إن أحسست بالبرد الشديد فاغمزني، وأنه علا به في الجو حتى أحس بالبرد، فغمزه فهبط بذلك المكان المقصود، وأنه أقام عندهم يسيراً، ثم رجعا مستصحبين ما كان الشيخ أوصاهما به من فاكهة ذلك المكان.

يقول السخاوي: وهذه الحكاية منقطعة، ولا استبعاد لصحتها. والله تعالى أعلم.

وأقول: لم يروِ أحدٌ ممن ترجم للنووي هذه القصة، حتى تلميذه ابن العطار الذي ذكر كثيراً من دقائق حياته، ولا الذهبي وقد ذكر النووي في جميع كتبه في التراجم، ولم يروها إلا السخاوي، ومع ذلك قال: إنها منقطعة. والنووي الذي امتنع عن أكل فاكهة الشام ورعاً وزهداً، مع شهرة فاكهة الشام، أيوصي تلميذه أن يأتيه بفاكهة ذاك المكان من العراق؟! على أن بين وفاة الراوي أبي زرعة وبين وفاة النووي مائة وخمسين سنة، فلا شك عندي أن القصة ملفقة وموضوعة، وإنما ذكرتها لأنبه على ذلك.

وَفاتُهُ ومَا قيل فيهِ

وفاته رضي الله عنه:

في الثلث الأخير من ليلة الأربعاء في الرابع العشرين[1] من رجب، سنة ست وسبعين وستمائة، أفَل قمر العلم والدين، والزهد والعبادة، النواوي رحمه الله تعالى.

يقول التاج السبكي: لما مات النووي بنوى ارتجت دمشق وما حولها بالبكاء، وتأسف عليه المسلمون أسفاً شديداً، وأحيوا ليالي كثيرة لسَنَته[2].

وهاك قصة وفاته كما رواها تلميذه علاء الدين بن العطار، يقول[3]:

«وكنت جالساً بين يديه قبل انتقاله بشهرين أو نحوهما وإذا

---

(١) وهناك من قال في الرابع عشر من رجب كما في السخاوي، والأكثرون على أن وفاته في الرابع والعشرين كما قلنا.

(٢) تحفة الطالبين ٢/ب.

(٣) نفس المرجع.

بفقير قد دخل عليه، وقال للشيخ: فلان من بلاد صرخد يسلم عليك، وأرسل معي هذا الإبريق لك، فقبله الشيخ وأمرني بوضعه في بيت حوائجه، فتعجبت منه لقبوله، فشعر بتعجبي فقال: أرسل إليَّ بعض الفقراء زربولاً، وهذا إبريق، فهذه آلة السفر.

ثم بعد أيام يسيرة كنت عنده، فقال لي: قد أذن لي في السفر، فقلت: كيف أذن لك؟ قال: أنا جالس هنا ـ يعني بيته في المدرسة الرواحية، وقدامه طاقة مشرفة عليها مستقبلة القبلة ـ إذ مر عليَّ شخص في الهواء من هنا، ومر كذا يشير من غرب المدرسة إلى شرقها وقال: قم سافر لزيارة بيت المقدس، وكنت حملت كلام الشيخ على سفر العادة، فإذا هو السفر الحقيقي، ثم قال لي: قم حتى نودِّع أصحابنا وأحبابنا، فخرجت معه إلى القبور التي دفن فيها بعض مشايخه، فزارهم وقرأ شيئاً وبكى، ثم زار أصحابه الأحياء والشيخ يوسف الفقاعي والشيخ محمد الإخميمي، وشيخنا الشيخ شمس الدين بن أبي عمر شيخ الحنابلة ثم سافر صبيحة ذلك اليوم، وجرى لي معه وقائع، ورأيت منه أموراً تحتمل مجلدات، فسار إلى نوى وزار القدس والخليل عليه السلام، ثم عاد إلى نوى، ومرض عقب زيارته لها في بيت والده، فبلغني مرضه فذهبت من دمشق لعيادته، ففرح رحمه الله بذلك، ثم قال لي ارجع إلى أهلك، وودعته وقد أشرف على العافية يوم السبت العشرين من رجب سنة ست

وسبعين وستمائة، ثم توفي في ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من رجب.

فبينا أنا نائم تلك الليلة إذا مناد ينادي على سدة جامع دمشق في يوم جمعة: الصلاة على الشيخ ركن الدين الموقع، فصاح الناس لذلك النداء، فاستيقظت فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، فلم يكن إلا ليلة الجمعة عشية الخميس إذ جاء الخبر بموته رحمه الله، فنودي يوم الجمعة عقب الصلاة بموته، وصلي عليه بجامع دمشق. فتأسف المسلمون عليه تأسفاً بليغاً، الخاص والعام، والمادح والذام».

ودفن رحمه الله في قريته نوى، وقبره ظاهر يزار، وكان رحمه الله يريد أن يكون قبره على السنَّة،فيه علامة الفقر إلى الله، وعلامة الزهد الذي عاشه في دنياه، ولكن الموت لم يمهله حتى يوصي بذلك، وقومه يريدون رفع شأنه، وكل من لا يعرف، أو يتجاهل، يظن أن رفعة الشأن تكون بتعظيم القبور بتجصيصها أو تزيينها ببلاط، أو تحويطها أو رفع المساجد عليها، وكل هذا منعه الشارع فالمقابر وقف على المسلمين، ولا يحق لأحد فيها أكثر من موضع تمديد جسده، وهذا ما صرح بمعناه النووي عليه رحمة الله في شرحه لمسلم، قلت: كان يريد رحمه الله أن يكون قبره على السنة، وقومه يريدون بناء قبة عليه، ولكن الله أبى إلا ما يريد،

فإنه[١] لما توفي رحمه الله تعالى ودفن، أراد أهله واقاربه وجيرانه أن يبنوا على ضريحه قبة، وأجمعوا على ذلك، إذ جاء رحمه الله في النوم إلى أكبر امرأة من قرابته ـ أظنها عمته ـ وقال لها: قولي لأخي والجماعة لا يفعلون هذا الذي قد عزموا عليه من البنيان، فإنه كلما بنوا شيئاً يهدم عليهم، فانتبهت منزعجة، فقصت عليهم الرؤيا، فامتنعوا من البنيان، وحوطوا على قبره بحجارة تمنع الدواب وغيرها. ومما يدل على صدق هذه الرؤيا أنه[٢] في أواخر القرن العاشر، بنى الأمير الكبير صاحب القدر الخطير قانصوه الساعدي كبير الحاج سابقاً رحمه الله تعالى على قبر الشيخ رضي الله عنه قبة مراراً، فوقعت من غير هدم.

ولا تزال هذه العقيدة سائدة بين أهل نوى، وهي أنهم كلما بنوا سقفاً على قبره يرون أنه لا بد أن يهدم، فهم يتخوفون دائماً أن يجعلوا لقبره سقفاً.

ومما أثر من خبره أنه[٣] لما دنا أجله، ودعاه الحق، رد الكتب المستعارة عنده من الأوقاف جميعها.

وقال اللخمي[٤] في ترجمته المفردة عن غير واحد من

---

(١) كما روى تلميذه ابن العطار في كتابه تحفة الطالبين ٤٢.
(٢) السخاوي ٧٥.
(٣) الطبقات الكبرى ٨/٣٩٨.
(٤) السخاوي ٧٥.

العلماء بدمشق: أنه لما خرج منها إلى نوا، خرج معه جماعة من العلماء وغيرهم لظاهر دمشق، وسألوه: متى الاجتماع؟ فقال: بعد مائتي سنة، فعلموا أنه عنى القيامة، وسافر إلى أبويه ثم مرض.

وقال القطب اليونيني[1]: ولما وصل الخبر بوفاته لدمشق، توجه قاضي القضاة عز الدين محمد بن الصائغ[2]، وجماعة من أصحابه إلى نوى للصلاة على قبره.

قال: وكان يسأل أن يموت بأرض فلسطين، فاستجاب الله تعالى منه.

وكذا قال ابن العطار[3]: سرت إلى نوا صحبة قاضي القضاة أبي المفاخر محمد بن عبد القادر الأنصاري لتعزية والده وأقاربه، وأقمت عندهم أياماً.

ما رثي به رحمه الله:

يقول الذهبي[4]: ورثاه غير واحد. يبلغون عشرين نفساً بأكثر من ستمائة بيت.

---

(١) السخاوي ٧٥.

(٢) وهو محمد بن عبدالقادر بن عبدالخالق، توفي سنة ٦٨٣ هـ.

(٣) السخاوي ٧٥.

(٤) المصدر نفسه.

ويقول ابن العطار[1]: ورثاه كثيرون: منهم شيخ الأدب أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر الحنفي الأربلي، رثاه بقصيدتين، وسنذكر إحداهما كاملة في نهاية هذا العرض.

ومنهم الصدر الرئيس الفاضل أبو العباس أحمد بن إبراهيم ابن مصعب، وأول قصيدته:

أكتم حزني والمدامع تبديه
لفقد امرىء كل البرية تبكيه

ومنهم الأديب نجم الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين محمد بن أمين الدين التغلبي، وأول مرثيته:

أعينيَّ جودا بالدموع الهوامل
وجودا بها كالساريات الهواطل

ورثاه بعض فضلاء الحنفية، وأول مرثيته:

مصاب أصاب القلب والجفن أرَّقاً
وخَطْب أتى بالحزن والصبر فرقا

وممن رثاه الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد المنيحي أحد فقهاء المدرسة الناصرية، وأول مرثيته:

---

(١) آخر تحفة الطالبين.

سبــل العلــوم تقطعــت أسبــابهــا
وتعطلــت مــن حليهــا طــلابهــا

وممن رثاه المجد أبو الفضل يوسف بن محمد بن عبد الله الكاتب الأديب المصري ثم الدمشقي، وأول مرثيته:

الحمــــد لله العظيــــم الهــــادي
جلــت محــامــده عــن التعــداد

وممن رثاه الأديب المحدث أبو الحسن علي بن إبراهيم بن المظفر الكندي، وأول مرثيته:

لهفــي عليــه سيــداً وحصــوراً
سنــداً لأعــلام الهــدى وظهيــرا

وممن رثاه الشيخ أبو محمد إسماعيل البسطي بقصيدة تعدادها واحد وثلاثون بيتاً، أولها:

رزية محيي الدين قد عمت الورى
فلســت تــرى إلا حــزينــاً مفكــرا

وممن رثاه بقصيدة تعدادها عشرة أبيات: تلميذه الفقيه المقرىء أبو العباس أحمد الضرير الواسطي الملقب بالخلال، وأولها:

لقــد ذهــب الحَبــر الجليــل المــوفَّــق
وعــدنــا حيــارى والــدمــوع تَــدَفَّــق

وممن رثاه بعض الإخوان ـ كما يقول ابن العطار ـ بقصيدة تعدادها واحد وأربعون بيتاً وأولها:

شؤون دمعي ليس الصبر من شأني
سُحي أسى لا تشحِّي بالدم القاني

وممن رثاه بعض المحبين ـ كما يقول ابن العطار ـ بقصيدة تعدادها أربعون بيتاً أولها:

وجـدَتْ عليـك شـرائـع الإسـلام
أسفـاً يـلازمهـا مـدى الأيـام

وممن رثاه المهذب عمر بن علي الزرعي بقصيدة تعدادها واحد وعشرون بيتاً، وأولها:

أي عـذر لمقلـة غيـر عبـرا
بعـد يحيـى ومهجـة غيـر حـرًا

وممن رثاه الحسين بن صدقة الموصلي بقصيدة تعدادها عشرة أبيات، أولها:

خطـب ألـمَّ وهـت لـه الأصـلاد
وتفطـرت بهجـومـه الأطـواد

ورثـاه بعـض المحبيـن ـ كمـا يقـول ابـن العطـار ولـم يسمِّه ـ بقصيدة تعدادها أربعة وعشرون بيتاً، وأولها:

. . . . فقلبـــــه مقـــــروح

وبكـــى عليـــك فـــدمعـــه مسفـــوح[1]

ورثاه بعض الإخوان ـ كما يقول ابن العطار ـ بقصيدة تعدادها ستة وعشرون بيتاً، وأولها:

سيـف الحِمـام علـى البـريـة منتضـا

صبـراً وتسليمـاً بمـا حكـم القضـا

وممن رثاه الفاضل أبو محمد عبد الله الأندلسي بقصيدة تعدادها أربعون بيتاً، وأولها:

ســل رَبْــع دار قــد خلــت أن أخبـرا

عــن أهلهـا وبـأهلهـا مـا قـد جـرى

ورثاه بعض المدرسين بالبادرائية بدمشق بقصيدة تعدادها خمسة أبيات أولها:

سقى قبر يحيى في نوى كل مُسبل

مــن الغيــث عــرَّاضِ البــوارق هتـان

ورثاه بعض المحبين في الله ـ كما يقول ابن العطار ـ بقصيدة تعدادها تسعة أبيات وأولها:

بكى العلم حيناً بعد حين على يحيى

وآلــى يمينـاً بعــده لــم يكــن يحيـا

---

(١) لم أتبين أول البيت في مصورة المجمع لابن العطار.

ورثاه بعض الفقهاء المحبين في الله تعالى رحمه الله تعالى بقصيدة تعدادها سبعة وثلاثون بيتاً أولها:

بـانـت مسـراتنـا مُـذ بـان إخـوان
فـأيـن معتبـر فـالـدهـر خـوان

وهذه المراثي بتمامها مبثوثة في تحفة الطالبين في ترجمة النووي. ولا بد هنا من أن نذكر قصيدة كاملة من رثائه؛ لنعلم مقدار تأثر الخاصة والعامة على وفاة الإمام النووي، وهذه المرثية هي لمحمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر الحنفي الأربلي الذي تقدم ذكره وهذا نصها كاملاً:

عـزّ العـزاء وعـم الحـادث الجلـل
وخـاب بـالمـوت فـي تعميـرك الأمـل
واستوحشت بعدما كنت الأنيس لها
وسـاءهـا فقـدك الأسحـار والأصُـل
وكنـت للـديـن نـوراً يستضـاء بـه
مسـدّداً منـك فيـه القـول والعمـل
وكنـت تتلـو كتـاب الله معتبـراً
لا يعتـريـك علـى تكـراره ملـل
وكنـت فـي سنـة المختـار مجتهـداً
وأنـت بـاليمـن والتـوفيـق مشتمـل

وكنت زيناً لأهل العلم مفتخراً
على جديد كساهم ثوبُك السَمَلُ
وكنتَ أسبغهم ظلاً إذا استعرت
هواجر الجهل والأطلال ينتقل
كساك ربك أوصافاً مجمَّلة
يضيق عن حصرها التفصيل والجمل
أسلى كمالُك عن قوم مضوا بدلا
وعن كمالك لا مثلٌ ولا بدل
فمثل فقدك ترتاع العقول له
وفقد مثلك جرح ليس يندمل
زهدتَ في هذه الدنيا وزخرفها
عزماً وحزماً ومضروب بك المثل
أعرضت عنها احتقاراً غير محتفل
وأنت بالسعي في أخراك محتفل
عزفت عن شهوات ما لعزم فتى
بها سواك إذا عنت له قبل
أسهرت في العلم عيناً لم تذق سِنة
إلا وأنت به في الحكم مشتغل
يا لهف حفل عظيم كنت بهجتَه
وحلة فعراه بعدك العَطَل

وطـالبـو العلـم مـن دانٍ ومغتـرب
نـالـوا بيمنـك منـه فـوق مـا أمِلـوا
حـاروا لغيبـة هـاديهـم وضـاق بهـم
لفـرط حـزن عليـه السهـلُ والجبـل
تُـرى دَرَى تُـربـه مـن غيبـوه بـه
أو نعشـه مـن علـى أعـواده حملـوا
عنـاه شغلهـم دهـراً وعـاذلهـم
بـلاعـج الـوجـد عـن أشغـالهـم شغـل
يا محيي الدين كم غادرت من كبد
حـرّى عليـك وعيـنٌ دمعهـا هطـل
وكـم مقـام كحـد السيـف لا جَلَـدٌ
يقـوى علـى هـولـه فيـه ولا جـدل
أمـرت فيـه بـأمـر الله منتضيـاً
سيفـاً مـن العـزم لـم يصنـع لـه خلـل
وكم تواضعت عن فضل وعن شرف
وهمـة هـامـةَ الجـوزاء تنتعـل
عـالجـت نفسـك والأدواء شـاملـة
حتـى استقـامـت وحتـى زالـت العلـل
بلغـت بـالتعـب الفـانـي رضـى ملـك
ثـوابـه فـي جنـان الخلـد متصـل

ضيف الكريم جدير أن يضاف له
إلى الكرامة من ألطافه نُزُل
بررت أهليك في داريك محتسباً
فقد تكافأ فيك الحزن والجذل
فُجعت بالأنس ليلاً كنت ساهره
لله والنوم قد خيطت به المقل
لا زال مثواك مثوى كل عارفة
وروضة النضر من سحب الرضا خضل
إلى متى بغرور نطمئن ولا
الملوك رُدَّ الردى عنهم ولا الرسل
ولا حمىً من حِمام جحفل لَجِب
ولا حصون منيعات ولا قلل
يا لاهياً لاهياً عن هول مصرعه
وضاحك السن منه يضحك الأجل
لا تخل نفسك من زاد فإنك من
حين الولاد مع الأنفاس مرتحل

الخاتمة

الحمد لله في البدء والختام، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وخير الأنام.

وبعد:

فهذه الكلمات في هذا الكتاب ملخص لحياة الإمام النووي العلمية والروحية والخاصة، وقليل مجحف أن يترجم إمام من كبار أئمة القرن السابع بكتاب صغير، وتلميذه العلاء بن العطار يقول: لقد رأيت منه أموراً تحتمل مجلدات. ومعذرتنا أنا كتبنا ما وجدناه في بطون كتب التراجم وفي رسالتَي ابن العطار والسخاوي، ولم نأل جهداً في ذلك.

والصِفة التي تجمع خصاله كلها هي: أنه لم يعمل لدنياه قط، وما أخذ من دنياه إلا بمقدار ما يدفع الهلكة عن نفسه، ثم أنفق ملكاته وعقله وقواه في السعي إلى نجاته يوم الفزع الأكبر، ورأى - ورأيه الحق - أن سبيل ذلك أن يبلغ من العلوم الشرعية ووسائلها مبلغ الكمال، فالعلم ذاته عبادة إن قصد به وجه الله، وقد أشرنا إلى قوله في

ذلك في غضون الكتاب. ويرحم الله الإمام الغزالي إذ يقول في مقدمة كتابه المستصفى: «الطاعة طاعتان: عمل وعلم، والعلم أنجحها وأربحها، فإنه أيضاً من العمل، ولكنه عمل القلب الذي هو أعز الأعضاء، وسعي العقل الذي هو أشرف الأشياء، لأنه مركب الديانة وحامل الأمانة، إذ عرضت على الأرض والجبال والسماء فأشفقن من حملها وأبَيْن أن يحملنها غاية الإباء» وإنما قال الإمام الغزالي ذلك لئلا يتقدم إلى تعليم الناس وإرشادهم الجهلاء وأنصاف العلماء، فيَضِلون ويضِلون، وما ينفع الإنسان أن يتعبد مائة سنة على غير هدى ولا علم ولا كتاب منير.

فالإمام النووي رحمه الله خشي الله بعمله، وعبده بعلمه، واتقاه بورعه، وأطاعه باجتناب ما حرم، وابتغى رضاه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقرب إليه بكثرة العبادة، وعمل للآخرة ورضاء الله، على قدر زهده في دنياه.

* * *



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة